الفصل السابع

الفلاحـــة

الجهود العربية والإسلامية فى الفلاحة :

كانت الزراعة فى البلاد الإسلامية متنوعة الصور ، حتى كاد كل واد أو قرية يكـــون مـــنفردا بشئ ابتدعه ، ففى إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر) – مثلا – كـــانوا يحـــرثون الأرض علـــى ثمان من البقر ، لكل اثنين منها سائق ، ولم يكن ذلك لصلابة فى الأرض ، بل لأنها كانت متجمدة . أما بمدينة أبرقوة بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر ، مع كثرتها فى بلادهم .

والحـــرث والحـــراثة ، العمـــل فى الأرض زرعا كان أو غرسا ، وقد يكون الحـــرث نفـــس الـــزرع ، وذكـــر أن الحرث ، قذفك الحب فى الأرض للازدراع ، والحـــراث ، الزراع . و(الكراب) فى مرادف الحراث ، والكرابة ، الحراثة . والكراب ، إثارتك الأرض [١] . وفلح الأرض للزراعة يفلحها فلحا إذا شقها للحرث ، والفلاح ، الأكار لانه يفلح الأرض أى يشقها وحرفته الفلاحة ، وفى الأساس : أحسبك مـــن فلاحـــة اليمـــن وهم الأكرة لأنهم يفلحون الأرض يشقونها ، والفلاح : المكارى تشبيها بالأكار [٢] .

و(الجـــوّار) الأكـــار ، وقـــيل : هـــو الـــذى يعمـــل لك فى كرم أو بستان . و(الأكـــار) الحراث والزراع ، والمؤاكرة ، المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع فى الأرض ، وهى المخابرة كما مر بنا . وكان يعتنى بتسميد الأرض عناية كبيرة فى جمـــيع البلاد وكانوا يستعملون فى ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم وما يخرج من فضـــلات الإنســـان أيضـــا . وكـــان الأول يباع فى العراق بالسابل ، وكان للفضلات الإنســـانية قـــيمة فى البصرة . وكان الناس فى ناحية سيراف ، أى فى مدينتى كران

وأرهستان يزرعون النخل فى حفر عميقة حتى لا يظهر من النخلة على وجه الأرض إلا أعلاهـا . وكان ماء الشتاء يتجمع فى هذه الحفر ، ويروى النخل . وكذلك كان إذا سئل أحد : أين ينبت النخل فى الآبار ؟ أجاب : بأراهستان [٣] .

وإذا كانـت ظـروف الجزيـرة العربية لم تسمح للجمهرة الكبرى من سكانها بممارسة الفلاحة إلا أن تغير الظروف الهيكلية للبناء الاجتماعى الإسلامى قد أدى إلى تغـير اتجاهـات فـئات كثـيرة من العرب نحو الفلاحة ، إذ أحبوها ومارسوها ، بل وأبدعـوا وابـتكروا ، ولعل قراءة بسيطة لخطط المقريزى فى الظروف التى أحاطت بالقـبائل العربية التى وفدت إلى مصر تبين كيف تغيرت بالفعل عاداتها وتقاليدها ، إذ يقـال أن عبـيد الله بـن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر ، قال : ما أرى لقـيس (إحدى القبائل العربية الوافدة) فيها حظا إلا لناس من جديلة وهو فهم وعدوان : فكتـب إلـى هشام ، أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشـهم ورفـع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ولم أر لهم حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهـى بلبـيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل " فكتب إلـيه هشـام : أنـت وذاك . فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نضر ومائة أهل بيت من بنى سليم ، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع [٤] .

وقـد أدى نجـاحهم فـى الـزراعة وتـزايد الخيرات عليهم وانتعاش أحوالهم المعاشـية إلـى توافـد المـزيد حـتى أصبح بهذه المنطقة الآلاف منهم بعد أن كانوا عشرات .

ومع الأسف فإن عمال الأمويين فى بعض المناطق كانوا يسيئون إلى أصحاب الخراج من الرعايا ، بما يستعملونه من العنف والعسف فى تحصيلها ، فتشاغل الناس عـن الـزرع فأهملـت الأرض ، وزادهـا إهمالا نشوب الفتن والحروب فى العراق وفـارس وسـائر أنحاء الدولة الإسلامية . ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكايـة فـيهم ولقلة انتفاعهم بها ، فأصبح معظم البلاد خرابا من الإهمال وفيها الضياع

والمـزارع ، فلمـا تولـى العباسيون ونشروا لواء العدل ، وأحسنوا معاملة أهل الذمة والموالـى ، وأمـنوهم علـى حقوقهم وأموالهم وأرواحهم ، عاد الناس إلى الاشتغال بالزرع وغيره (٥) .

وكـان للخلفـاء الأولين من بنى العباس عناية كبرى بتأييد الأمن وتعمير البلاد ورعايـة أهلهـا مـن الذميين والموالى ، فالمنصور كان يتتبع العمال الظالمين ويأخذ أموالهـم ، ويسـتبدل بهم سواهم ويضع ما يأخذه من أموالهم فى بيت مال مفرد سماه بيـت مـال المظالم وكان يبعث إلى الأطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضـهم بعضا ، ويبحث عن كل ما يقضى به القضاة أو يعمل به الولاة ، وعما يرد إلـى بيت المال وعن كل ما يحدث . فإذا رأى الأسعار تغيرت سأل عن السبب ، وإذا شـك فى شئ مما قضى به القاضى سألة ووبخه . وبعد أن كان الموالى كالأرقاء فى أيـام بـنى أمـية أصـبحوا فى أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة ، يوصى الخلفـاء بعضـهم بعضـا برعايتهم وخصوصا أل خراسان فقد أوصى المنصور ابنه المهـدى قـائلا (٦) :" انظـر إلى مواليك ، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مـادتك لشدتك إذا نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذيـن بذلـوا أموالهـم ودمـائهم فى دولتك " . وكذلك فعل المأمون وغيره ، وكان المنصـور يشـغل نهـاره فـى النظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والـتلطف معهـم مما يؤدى إلى اطمئنانهم وهدوئهم . ومن وصاياه لابنه المذكور :"يا بـنى لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل " .

وأدلـة عدل الخلفاء العباسيين الأولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدى يجلـس للمظـالم فينصف الناس من عماله وقضائه وأهله . وأخبار الرشيد فى العدل أكـثر مـن أن تحصـى ، وكان إذا ذكروا الظلم بين يديه بكى (٧) . فكيف لا يستتب الأمن فى ظل هؤلاء ؟ ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة فى حمايتهم ؟ وكيف لا يتـناظر الناس إلى جوارهم والاستهلاك فى خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد فى ظل العـدل وهـو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران إلا فى ظله ولا حياة إلا به ؟ ولا

يتم عز للسلطان إلا بالعدل . إذ لا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المالك إلا بالعمارة [٨] .

فـــى ظـــل هذه الظروف وجه خلفاء العصر العباسى الأول عنايتهم إلى تشجيع الـــزراعة ، فنشـــطوا فـــى حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر . وكانت الأراضـــى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية ، وكانت الحكومـــة تشـــرف علـــى إدارتها إشرافا مباشرا وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وامتدت فى هذه الأراضى شبكة من الترع والمصارف حتى أصبحت قوية الخصـــب ، تكـــثر بهـــا المـــزارع والبســـاتين وهى التى أشرنا إليها من قبل، بأرض السواد [٩] ، ولكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة .

ولمـــا كـــان ماء الفرات لا يكفى لرى أراضى السواد أو يساعد على خصبها ، عمـــل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الإرواء بشق كثير من الجداول والترع ، علـــى حيـــن أمكـــن الاحتفاظ بماء دجلة لإرواء الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلـــى ســـاحل الخلـــيج الفارســـى ، وأمكن بذلك إرواء جميع الأراضى الممتدة بين الصـــحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدر على أهلها الخير والـــنماء . كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذى يأخذ ماءه من دجلة وقناة أخرى من كـــرخايا الـــذى يـــأخذ مـــاءه مـــن الفرات ، ووصلهما بمدينة بغداد فى عقود محكمة بالصـــاروج (وهو حجر الكلس) والآجر . فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ فـــى الشـــوارع والـــدروب والأربـــاض ، ولا ينقطع صيفا ولا شتاء . كما ساقى هذا الخلـــيفة المـــاء إلـــى الكرخ ، فجرى فيها نهر القلائين ، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقى الكرخ كان يقلى فيها السمك ، ونهر البزازين [١٠] .

وقـــد عـــنى خلفاء العصر العباسى الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقـــول المسلمين فتوسعوا فى البحث النظرى ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات [١١] .

وفى العصر العباسى الثانى عنيت الدولة بصيانة السدود والترع وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين ، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها ، إذ يكفيه " إيقاع ثلمة يسيرة فى أحد نواحى السد ، ثم يحمل الماء فيتولى كفايته فى الهدم والتخريب ، فربما أفسد فى ساعة أو نهار تعب سنة أو نحوها . وذلك أن هذه السدود تكون من نصب وتراب يقام فى وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها فإذا وردت المياه القوية ، ومنعت من حدودها ، كفى معها اليسير من المعونة حتى تتبعث ويدفع بعضها بعضا وربما كان سبب انبثاق ثقب الماء فأرة يوسعه الماء وينتهى فيه إلى حيث لا حيلة فى سده " (١٢) .

ولم تكن تعرف بالبلاد العربية والإسلامية كلها الأشباح التى يطرد بها الطير عن المزارع ، وهى ليست معروفة اليوم أيضا ، فكان بالعراق أبناء القرامطة هم الذين يطردون الطير من الحقول ، وكانوا يعطون على ذلك أجرا ، فيدفعونه لجماعتهم . أما فى التركستان فى أيامنا " فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطير بأن يقيموا ربوة من الطين ، ارتفاعها نحو مترين فى وسط كل حقل ، وعلى هذه الربوة صبيان عراة أو أنصاف عراة ، عملهم طول النهار وفى الشمس المحرقة طرد الطيور بأن يصيحوا عليها أو يقذفونها بأكر من الطين ، أو بأن يضربوا طبلا أو وعاء معدنيا قديما ، وفى الصيف عندما ينتشر هؤلاء الصبيان اثنان أو ثلاثة فى كل حقل أو حديقة ، وكل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر ، عند ذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاء مزعجة ، يكاد الإنسان منها يجن " (١٣) .

وكانت العراق فى القرن الرابع الهجرى لا تزال بلادا تربى البقر وكان الأنباط المقيمون هناك يعرفون بأنهم " فرسان البقر" ولم يتغلب الجاموس فى هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات . وقد جلب العرب الجاموس من الهند ، وهى موطنه الأصلى ، ثم نقل فى عهد بنى أمية من السند إلى بطائح العراق ، بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجاموس على حدود الشام من الشمال لأن

الناس شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود . ثم أن عرب الشام نقلوا هذا الحيوان الذى يحب المستنقعات إلى إيطاليا والأندلس [١٤] .

وفى كتاب (الفلاحة النبطية) صفحات عديدة تتناول موضوعات مختلفة تتصل بالفلاحة اتصالا مباشرا ، مما يشير إلى أن مثل هذه الكتابات جاءت لتسد حاجات قائمة ، فمن ذلك على سبيل المثال [١٥] :

١-إدارة الأراضى المزروعة : واجبات صاحب الملك نحو الأرض والعمال الذين يعملون فيها .

٢- وكيل إدارة الأرض المزروعة : واجباته نحو المزارعين ، تنفيذ توجيهات رب العمل .

٣- التنبوء بالتغيرات الجوية : دلائل مأخوذة من تحولات الكواكب السيارة والنجوم .

٤- كيفية معرفة الزراعات التى تنجح زراعتها فى هذه السنة أو تلك .

٥- الأعمال الزراعية والفصول : تعداد الأعمال التى يجب القيام بها فى كل شهر من أشهر السنة ابتداء من شهر آذار ، مارس .

٦- ما يجب على المزارع وصاحب الأرض معرفته بالضرورة : عرض نظرى لحركات الشمس من خلال صور البروج والتأثيرات الناجمة عنها فى عالم الحيوان والنبات والجماد . الأمراض التى تنتج عنها (أشجار لم تعد تثمر وكروم مصابة " بآفة النجوم " أو الاصفرار) ومعالجتها . تغيرات فى طبائع وسلوك وأشكال النبات ، أهمية الزراعة والمزارعين فى حياة جميع الناس خاصة رجال السلطة . خصوم المزارعين (نساكا ومتعبدين) .

٧- طبيعة التربة : طعمها المختلف ، أهمية التربة بالنسبة للنبات ، طعمها ورائحتها المؤذيان ، معالجة كل نوع من أنواع التربة ، الأراضى الكبريتية

والمالحة ، تغيرات ناتجة عن طبيعة التربة وأثرها بالتالى فى الحيوان والنبات والجماد ٠ الأراضى الجافة والأراضى الرطبة وأثرها فى النبات ٠ كيفية معرفة الأرض الجيدة . طبيعة التربة والزراعات الملائمة ٠ أسباب فساد التربة ٠٠٠إلخ .

وإذا نظرنا فى جملة الكتابات العربية الخاصة بالنباتات والزراعة ، فسوف نجد أنها تجلت فيما يلى [١٦] :

١- فى المعلومات الأولية التى يفترض أن يعرفها المزارع ، مثل الأرصاد الجوية ، وعلم المناخ ، وعلم المياه ، والاقتصاد ، وإدارة الأراضى الزراعية ، وكل ما يمثله مفهوم امتلاك الأرض (عمارة الأرض) .

٢- فى المعلومات الزراعية البحتة ، أى علم التربة ، علم البيئة الزراعية ، الرى ، تمهيد الأرض ، الغرس ، نشر الأسمدة ، إبادة الأعشاب الضارة ، البذار ، تقليم الأشجار ، التطعيم ، تشذيب الكرمة ، الوقاية من الأمراض ، علاج النبات ، جميع الأعمال المتعلقة بالعناية وطرق تحسين الزراعة ، الحصاد وتخزين المحاصيل .

ونحب أن نؤكد أن المعلومات النباتية ليست أقل شأنا ، إذ أن المؤلفات الزراعية ، بالإضافة إلى مؤلفات علم النبات تشرح لنا كل ما يتعلق بالأشجار المثمرة والحرجية ، الشجيرات ، والنباتات العطرية ، والزيتية ، ونباتات الخضرة أو البقول ، والنباتات البرية ، والقرنيات والزروع ٠٠٠إلخ يضاف إلى ذلك مجموعة من المعطيات فى الطب والطعام تبين فائدة النبات ، بإمكانها أن تشكل بحثا فى الاقتصاد الزراعى يكون تتويجا للأعمال الزراعية .

وللعرب مصطلحات فى ترتيب أحوال الزرع ، فهو ما دام فى البذر ، فهو الحب ، فإذا انشق الحب عن الورقة فهو الفرخ والشط ، فإذا طلع رأسه فهو الحقل ، فإذا صار أربع ورقات أو خمسا قيل : كوث تكويثا ، فإذا طال وغلظ قيل " استأسد " ، فإذا ظهرت قصبته قيل " قصّب " ، فإذا ظهرت فيه السنبلة قيل " سنبل " ثم اكتهل . وأحسن من جميع ذلك وأبلغ قوله عز وجل : (كزرع أخرج شطأه

فـــآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) . قال الزجاج " آزر الصغار ، الكبار حتى اســـتوى بعضه ببعض " . وقال غيره : (فساوى الفراخ الطوال فاستوى طولهما) ، وقـــال ابن الأعرابى : اشطأ الزرع ، إذا فرخ (وأخرج شطئه) ، فراخه (فآزره) ، أى أعانه [١٧] .

ولقـــد أشر وصول العرب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية بداية أعمق وأكبر تطور عرفـــته الـــزراعة فى هذه البقعة التى كانت قد آلت إلى حالة من التخلف والكساد فى الســـنين الأخـــيرة لحكـــم القوطيين الغربيين جراء اندلاع أزمة عامة أصابت جوانب الحـــياة كافـــة ، عقـــب الازدهـــار الكبـــير الـــذى كانت المنطقة تتمتع به على أيدى الرومان [١٨] .

وعلـــى الـــرغم مـــن ذلك ، وجد المستوطنون الجدد أرضا شديدة الخصب كان المؤرخـــون والجغرافـــيون العـــرب قد تغنوا بها فى كتاباتهم ، ولم يمض سوى وقت قصـــير حـــتى طـــور أولئك الوافدون التقنيات الزراعية لسابقيهم ، مضيفين بذلك إلى الـــتراث الزراعى المحلى العميق الجذور معارف جديدة للزراعة التطبيقية فى ميادين الأدويـــة والطـــب والنبات ، معارف أحدث جمعها وتطبيقها ثروة زراعية عظيمة فى بلاد الأندلس

ولا بأس من الاعتراف بأن العرب قد اكتسبوا قدرا من تلك المعارف الزراعية بمخـــتلف الطـــرق ومن شتى المصادر ، أكثرها أهمية المصادر الشرقية ذات الأصل الإغـــريقى – البـــيزنطى ، بالإضافة إلى أنه يجب عدم إغفال المعلومات المستقاة من (الفلاحـــة النبطية) ، فيما بعد ، وهو أول أثر عربى مهم فى ميدان الزراعة ، وكان يعد آنذاك انعكاسا لتراث حضارة ما بين النهرين .

ويعـــد القـــرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، مطلع الفترة التى بدأ علماء الأندلـــس فـــيها بـــتقديم إضـــافات علمية أصيلة ، بعد أن تجاوزوا المعرفة المشرقية العباســـية ، فإلى جانب النزعة الاستقلالية الجديدة التى أظهرتها كبار الشخصيات إزاء ثقافـــة المشرق وعلومه ، تضافرت فى الأندلس آنذك مجموعة من العوامل والظروف لتشـــكل نواة ما يسمى ب " المدرسة الزراعية الأندلسية " التى أصابت أوج ازدهارها

إبان القرنين التاليين ، الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين [١٩] .

وثمة عامل ذو أهمية بالغة ينبغى أخذه فى الاعتبار لدى التعرض للازدهار الكبير الذى شهدته الأندلس فى الفترة اللاحقة ، هو ظهور الحدائق النباتية أو الحدائق التجريبية التى جرى العمل فيها على أقلمة نباتات جديدة أو على تحسين أنواع نباتات معروفة أخرى فى تربة شبه الجزيرة الأيبيرية بواسطة البذور والجذور والفسائل التى جلبت إلى الأندلس من بقاع نائية فى الشرق الأدنى ، وكان من المعتاد أن يجمع البستانيون فى أسفارهم نباتات غريبة كى يجروا عليها اختباراتهم وتجاربهم فى وقت لاحق [٢٠] .

ثم أصابت مدرسة الزراعة التى قادت فى ما بعد ما سمى " بالثورة الزراعية الأندلسية " أوج ازدهارها فى فترة تاريخية محددة هى فترة السياسة اللامركزية التى انتهجها ملوك الطوائف عقب سقوط الخلافة ، الأمر الذى أحدث توازنا سياسيا واقتصاديا جديدا ، ولقد تضافرت جهود ، ومعارف ، وأغراض ، مختلفة للتوصل إلى ذلك التطور الزراعي ، أولها حكام رعوا ، جلب النباتات الجديدة لغرض أقلمتها فى جنائنهم الخاصة ، ومستشارون أدركوا ما للزراعة من دور وأهمية فى بلد مرفه ، ومشرعون وضعوا القوانين الكفيلة بتنظيم ذلك الميدان النامى ، وعلماء فلاحة كانوا فى العموم أناسا ذوى معرفة موسوعية انكبوا فى بحوثهم على التوفيق بين النظرية والممارسة التطبيقية الحية [٢١] .

وبلغت براعة العرب فى الفلاحة أن توصلوا إلى طرق خاصة لاستنباط نبات من آخر ولابن وحشية فى هذا المجال القدح المعلى ، فقد ذكر أنه إذا خلط بزر الكرنب ببذر السلجم – وهو اللفت – وتركا ثلاثة أشهر ثم زرعا خرج البزر كله سلجما ، فإذا أخذ من بزر هذا السلجم وزرع خرج كرنبا .

وحكى عنه أيضا انه إذا أحرق النعنع والجرجير فى موضع ند بقرب شجرة أو زرع ، وخلط الرماد بالتراب ، وأضيف إليهما قشر بيض الحمام ، ودفن ذلك فى

الأرض علـــى مقدار دون الشبر ، وصب عليه الماء أربعة أيام ، ثم يسقى على عادة النعـــنع والجرجير ، أخرج الدلب [٢٢] ، فإذا نبت فليحول ويغرس فى موضع آخر ، فإنه يثبت ، وزعم أن ذلك لا يتم إلا أن يكون فى أبريل إذا قارب القمر الشمس [٢٣] .

أمـــا ما يستأصل النبات الشاغل للأرض عن الغرس والزراعة ، فقد ذكر ابن وحشـــية مـــن ذلك أشياء كثيرة ، ثم قال : وأجود ذلك أن يزرع البنج [٢٤] فى الأرض الـــتى تنبت فيها هذه الحشائش ، ويسقى الماء ، فإذا كبر وأزهر يقلع ، ويؤخذ الترمس وورق الخـــلاف [٢٥] . فيلقـــيان علـــى البـــنج وهو رطب ، ويدق الجميع جملة حتى يخـــتلط ، وينـــثر منه فى تلك الأرض فإنه يحرق الثيل [٢٦] والشوك وجميع الحشائش الـــتى هـــى أعداء الزرع . قال : أو يسحق الترمس وثمر الطرفاء وورق الخلاف مع أغصـــانه سحقا ناعما ، ويعتصر ماء البنج الرطب وماء ورق الآس ويخلط الماءان ، ويبل بهما المسحوق يوما وليلة ، ثم يصب على الثيل وعلى أصول الشوك وغير ذلك من الحشائش الدغلة ، فإنه يأكلها ويجففها [٢٧] .

ومـــن الطـــرق أيضـــا : أن يعمل معول من نحاس ويحمى بالنار حتى يصير كالجمر ، ثم يغمس فى دم تبس كما يسقى الحديد ، يصنع به ذلك مرارا ، ثم يقطع به الثـــيل والشـــوك والعوســـج والقصب وغير ذلك من الحشائش الكبار الغلاظ المضرة بالـــزرع ، فإن كل نبات قطع به لا ينبت بعد ذلك أبدا ، لكنه متى أصاب المعول شيئا مـــن كـــرم أو نـــبات ، فإنه يؤذيه . ثم قال : أو تقلع أصول النبات المضرة بالزراعة والغـــرس ، ويؤخـــذ الماء العذب فيغلى فى قدر نحاس غليانا جيدا مرارا ، يوقد عليه بخشب الصنوبر ، ويدق الحنليت [٢٨] والخردل والخربق [٢٩] دقا ناعما ، وتضاف إلى الماء ويصب منه وهو حار فى الأصول [٣٠] التى قلعت ، فإن نباتها لا يعود أبدا ، أو يلقـــى الزفت والخمر فى ماء عذب ، ويغلى فى قدر نحاس حتى يذوب الزفت ويصب وهـــو حـــار فـــى تلـــك الأصول المقلوعة ، ومقدار ما يصب منه فى كل أصل ربع رطل [٣١] .

أما ما يقلع من الحلفاء فهو أن يزرع الترمس والخربق فى الأرض التى تظهر فيها ، فإذا انتهيا فى بلوغ غايتهما يقلعان بأصولهما ، ويلقيان على الأرض ، ويضربان بالخشب حتى يتهرأ ، ويجرى عليهما الماء ، ويتركان حتى يعفنا ، فإنهما يأكلان أصول الحلفاء وما عداها من الحشائش المضرة . ثم قال : ومن أراد قلع شجرة عظيمة لا يمكن الأكرة [٣٢] قلعها ، فليحفر حول أصلها فإذا انكشف ، صب فيه خلا قد أغلى فيه الزفت ، ثم يطمر بالتراب فإنه يهرئ ذلك الأصل ويفتته ويبسه ، وإن كان يابسا ، سقط بنفسه [٣٣] .

وارتبطت الفلاحة فى بعض المناطق الإسلامية ببعض العادات والتقاليد التى كان من شأنها زيادة التعاون والترابط وإشاعة أجواء البهجة والفرح ، فعلى سبيل المثال يروى ابن بطوطة أن أهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها ، وتعم المرافق ، ولولا أهل هذه البلاد بعملهم وجهودهم " لكان أهل مكة فى شظف من العيش " . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ، ووقع الموت فى مواشيهم . ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم ، وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم ، فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم " وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين " [٣٤] .

وفى منطقة أخرى ، نجد مدينة (زبيد) ، مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس باليمن – فيما يقول ابن بطوطة فى وقت زيارته – بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره ."كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها " و " هى وادى الخصيب " الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ فى وصيته : " يا معاذ إذا جئت وادى الخصيب فهرول ". ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون فى أيام اليسر

والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء . ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات [٣٥] .

وفي الشام ومصر نجد أن طرق الزراعة لم تختلف عبر العصور ، فظلت على ما هى عليه على وجه التقريب ، وكانت الدورة الزراعية فى مصر مرة واحدة في السنة أى أن الأرض كلها تزرع مرة فى كل سنة ، وذلك على خلاف الشام حيث يراح شطر ويزرع شطر ، ثم يبدل الشطران فى السنة التالية [٣٦] ، بمعنى آخر ، سارت بلاد الشام وفق النظام الذى عرف فى العصور الوسطى " نقلا عن الرومان " باسم " نظام الحقلين " The Two Field Cultivation تجنبا لإجهاد الأرض ومحاولة لتحسين الإنتاج [٣٧] .

تقسم الأرض لما تصلح له من أنواع المحاصيل فى جهات البلاد المختلفة ، وتعد إعدادا معينا وفق حاجة الزراعة المنتظرة فى المواعيد المعروفة لها ، فمثلا يزرع العدس والحمص ، وهما من المحاصيل الشتوية ، فى أرق الأرض حرثا من الأراضى العالية ، ويزرع تلويقا فى الأراضى الخرس [٣٨] . ويزرع القمح " إثر الباقى والشراقى بالصعيد من نصف شهر بابة إلى آخر هاتور فى العوالى من الأرض التى تخرج بدريا ، وأما البحائر المتأخرة فيمتد وقت الزرع إلى آخر كيهك [٣٩] . ويلاحظ أن فدان القمح ينتج من ٢-٢٠ إردبا ، وينتج الشعير من ٨-٢٠ إردبا ، والحمص من ٤-١٠ أرادب ، وينتج العدس ٢٠ إردبا إلى ما دون ذلك ، والكتان ٣٠ شدة (حزمة) ، ومن البذور ست أرادب ..وهكذا [٤٠] .

على أنه قد يحدث أن يرتفع المحصول ارتفاعا كبيرا كما حدث فى سنة ٨٠٦هـ - ١٤٠٣م إذ انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم على عهد السلطان فرج بن برقوق فزرعت شعيرا وجاء محصولها عجيبا فقد أنتج الفدان (٧١) إردبا من الشعير بكيل الفيوم ، وبالكيل المصرى ١٠٠ إردب ، وهذا مصداق قول ابن وحشية فى كتاب الفلاحة :" إن فى مصر إذا زرعوا ، يخرج من المد ثلاثمائة مد ، والعلة فى ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم وكثرة كدورة ماء النيل " [٤١] .

ومـــن أمثلة المحاصيل الصيفية : قصب السكر ، ويحتاج إلى " أرض دمثة قد شـــملها الـــرى وعلاهـــا النـــيل ، وقلـــع مـــا بهـــا مـــن الحلفاء ونظفت ثم برشت بـــالمقلقلات [٤٢] ، فـــإذا أصـــلحت الأرض وطابت وصارت ترابا ناعما شقت حينئذ بـــالمقلقلات ، ويرمى فيها القصب .. بعد أن تجعل الأرض أحواضا وتفرز لها جداول يصـــل المـــاء مـــنها إلـــى الأحواض ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاث أنابيب كوامـــل وبعض أنبوبة ، ويختار ما قصرت أنابيبه وكثرت كعوبه . ويقال لهذه العملية " النصـــب " ولابد للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لا تتطرق إليه الآفات ، كما لابـــد من حرق آثار القصب بعد قطعه ثم سقيه وعزقه فينبت قصب يقال له " الحلفة " أو " العقـــر " ويسمى الأول الرأس ، وينتج فدان القصب من ٤٠-٨٠ أبلوجة [٤٣] من العصـــير . وفـــدان السمسم من إردبين إلى ست أرادب والقطن ٨ قناطير ، فما دون ذلك .. وهكذا [٤٤] .

ومن فنون الفلاحة التى برع فيها العرب كذلك ، فلاحة البساتين ، والظاهر أن الشـــأن الذى كان للبساتين فى الحياتين الماضية والحاضرة للشعوب الإسلامية مستقى مـــن فكـــرة الجنة كما صورها القرآن الكريم الذى يرسم بالتفصيل المستفيض صورة النعيم الذى خص به المؤمنون حتى أن منشئ البساتين فى المشرق والمغرب اتخذوها نموذجـــا يحتذونه ، ففيها تجد مروجا تتخللها جداول ملتفة وأشجارا تنوء بما تحمل من ثمار ، وأرائك يمكن أن تضطجع فيها للراحة . وليس ثمة زهور وإنما توجد ثروة من أشجار الفاكهة [٤٥] .

ولا شـــك أن الدور الخاصة فى العصر العباسى كان لها حدائق داخلية ، ومن المشـــهور أن فن الطولونيين الذى سيطر على مصر فى القرن الثالث الهجرى (التاسع المـــيلادى) كان مرتبطا أوثق ارتباط بفن سامرا ، فقد كانت الغرف فى دور الفسطاط الـــتى يمكـــن أن نـــردها إلى ذلك العهد تفتح على فناء أوسط تحفر فيه حفر محدودة بالآجـــر يملأ بعضها بالماء وبعضها بالتربة لإنبات المزروعات ، على أن الحضرى كـــان يتمـــيز بذوق مشهود فى إنشاء البساتين . فقد نبه الرحالة الفارسى ناصر خسرو الأذهـــان إلـــى تلك البساتين التى كانت تزين الشرفات ، وكانت تقوم فى قمة دار من

سبعة طوابق آلة للرى تديرها الثيران وتستخدم فى رى أشجار البرتقال والموز وغير ذلك من أشجار الفاكهة كما تروى أصنافا كثيرة من الزهور والنباتات ذات العبير [٤٦] .

ونحن نصادف البساتين – كمثال آخر – فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) فى ظل الدولة الحفصية بتونس ، فإن الأملاك المترامية الأطراف المعروفة بأبى فهر التى أنشأها المستنصر (٦٤٧-٦٧٥هـ - ١٢٤٩-١٢٧٧) فى جوار هذه القصبة (قرب قرية أرينة الحالية) فيها ملامح مختلفة ترهص بالذوق المغربى المحب للأكدال . ويصف ابن خلدون هذا الأكدال وصفا مسهبا على غير عادته فيقول : إن المرء يصادفه غابة من الأشجار بعضها قد روض حتى غدا خمائل وترك البعض الآخر لينمو فى حرية مطلقة . وكانت أغصان أشجار الليمون والبرتقال تتعانق مع أغصان السرو على حين كان الآس والياسمين من تحتها يبتسم للزنبق . وفى وسط هذه الحراج بستان فسيح تحيط به بحيرة ممتدة الأفق حتى لتحسبها المحيط . وكانت المياه يحملها إلى هناك داموس (كان فيما سبق يمد قرطاجنة وكان المستنصر قد أصلحه) . وتتبجس المياه التى تجرى فى هذا المجرى متظللة منفذا ضخما فتصب فى الصهريج الكبير (يتخذ حوضا للسقى) ثم تسير فى قناة صغيرة بعض القصر إلى بركة كبيرة فتملؤها بسيول مدومة من شآبيبها . ويقوم عند كل طرف من البركة جوسق كبير وجوسق صغير تقوم سقوفها على عمد من المرمر الأبيض وقد رصعت حوائطها برصائع من المرمر [٤٧] .

ولا شك أن "نوعية" الأرض تلعب دورا كبيرا فى تحديد "نوعية" النباتات المراد زراعتها والجهود المطلوبة فى ذلك المجال ، ومن هنا كان الاهتمام بتصنيف أنواع الأرض ، من ذلك على سبيل المثال ذلك التصنيف الذى قام به (ابن مماتى) لأنواع الأراضى بمصر حيث عدها ثلاثة عشر نوعا [٤٨] :

النوع الأول : الباق . قال ابن مماتى : وهو أثر القُرط والقطانى والمقاثئ . وهو خير الأرضيين وأغلاها قيمة وأوفاها سعرا وقطيعة لأنها تصلح لزراعة القمح

والكـــتان . ويعلـــق التلقشـــندى بـــأن المعروف فى زمانه أن الباق أثر القرط والفول خاصة . أما المقائئ فإن أثرها يسمى البرش .

الـــنوع الثانى – رى الشراقى . قال ابن مماتى : وهو يتبع الباق فى الجودة ، ويلحـــق بـــه فى القطيعة لأن الأرض قد ظمئت فى السنة السابقة واشتدت حاجتها إلى المـــاء فلمـــا رويت حصل لها من الرى بمقدار ما حصل لها من الظمأ ، وكانت أيضا مستريحة فزرعها ينجب .

الـــنوع الثالـــث – البروبية ، وأهل العصور الاسلامية كانوا يقولون البرايب . قـــال ابـــن ممـــاتى ، وهو أثر القمح والشعير . وهو دون الباق لأن الأرض تضعف بزراعة هذين الصنفين فمتى زرع أحدهما على الآخر لم تنجب كنجابة الباق وسعرها دون سعره ، ويجب أن تزرع قرطا وقطانى ومقائئ لتستريح الأرض وتصير باقا فى السنة التالية .

الـــنوع الـــرابع – الـــبقماهة ، بضـــم الباء الموحدة وسكون القاف – وهو أثر الكـــتان . قـــال ابـــن مماتى : ومتى زرع فيه القمح لم ينجب وجاء دقيق الحب أسود اللون .

الـــنوع الخامس – الشتونية ، وأهل مصر كانوا يقولون : الشتانى وهو أثر ما روى وبار فى السنة السابقة ، قال ابن مماتى : وقطيعته دون قطيعة الشراقى .

الـــنوع الســـادس – السلايح شق شمس السلايح ، وهى الأرض التى رويت ثم حرثـــت ثم بارت وتركت فحرقت وتعطلت ، وغالبا ما يترك الفلاح هذه الأرض إلى العـــام الـــتالى ، ويحـــرثها أكثر من مرة لتهويتها وتعويض باطنها لأشعة الشمس مما يجعلهـــا فـــى العـــام التالى من الأراضى الجيدة التى تأتى بوافر المحصول وغالبا ما تكون تلك الأرض بها شقوق كثيرة ، وهذا النوع من التربة ينتشر بصعيد مصر .

النوع السابع – البرش النقاء . قال : هو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة السابقة ، لا شاغل لها عن قبول ما تودعه من أصناف المزروعات .

الـــنوع الثامن – الوسخ المزروع . قال : وهو عبارة عن كل أرض لم يستحكم وســـخها ، ولـــم يقـــدر الزارعون على استكمال إزالته منها فحرثوها وزرعوها وطلع زرعها مختلطا بوسخها .

الـــنوع التاســـع – الرسخ الغالب . وهو عبارة عن كل أرض حصل فيها من النـــبات الـــذى شغلها عن قبول الزراعة ما غلب المزارعين عليها ومنعهم بكثرته عن الزراعة فيها ، وهى تباع مراعى للبهائم .

الـــنوع العاشر – الخرس ، وهو عبارة عن فساد الأرض بما استحكم فيها من موانـــع قبول الزرع ، وهو أشد من الوسخ الغالب فى التنقية والإصلاح ، وهو مرعى الدواب .

الـــنوع الحادى عشر – الشراقى ، وهو عبارة عما لم يصل إليه الماء لقصور النـــيل وعلـــو الأرض أو سد الطريق عنه ، ولذا نجدها لا تغل محصولا يذكر ،وهى تخـــتلف من حيث نوعيتها عن النوع الثانى الذى ذكره المقريزى لأنها تزرع فى نفس السنة ، ولا تترك للعام الثانى ، ولكنها لا تعطى محصولا جيدا .

الـــنوع الـــثانى عشر – المستبحر . وهو عبارة عن أرض واطئة ، إذا حصل المـــاء فيها لا يجد مصرفا له عنها فيمضى زمن المزارعة قبل زواله بالنضوب . قال ابـــن مماتى : وربما انتفع به من ازدرع الأرض بالاستقاء منه بالسواقى لما زرعه فى العلو .

الـــنوع الثالـــث عشر – السباخ ، وهو أرض غلب عليها الملح فملحت حتى لم ينـــتفع بها فى زراعة الحبوب ، وهى أردى الأرضيين . قال ابن مماتى : وربما زرع فـــيما لـــم يســـتحكم مـــنها الهليون والباذنجان ، وربما قطع منها ما يسبخ به الكتان ، ويزرع فيها القصب الفارسى فينجب [٤٩] .

استصلاح الأراضى الزراعية :

وقد عرفت هذه العملية باسم (إحياء الموات) فالأرض كالكائن الحى إذا لم تنبت اعتبرت (ميتة) والذى يستصلحها فكأنه أحياها وقد أورد (محمد على نصر الله) العديد من التعريفات التى حفلت بها كتب الفقه الإسلامى ، منها [٥٠] :يقصد بالأرض الموات " الأرض الخراب الدارسة " ، وهى "كل أرض موات، لم يحيها أحد ، ولم يملكها مسلم ولا معاهد " . والموات فى تعريف قدامة بن جعفر ، كل أرض " إن كانت لا تنبت إلا بعلاج ، وكذلك الأرض يغلب عليها الغياض والآجام ، وكذلك الأرض التى يركبها الماء المقيم فيها حتى يحول بين الناس وبين زراعتها والانتفاع بها " . وكذلك هى "كل ما لم يكن عامرا ولا حريما لعامر فهو موات وان كان متصلا بعامر " [٥١] وعند الإمامية أن " عفو بلاد العرب هى الموات " . ويروى عقو بلاد العرب – وهى الساحة – والمراد به الموات ، فالصحيح إنه بالفاء ، وهى الأرض المتروكة التى لم يعمرها أحد ، ولا يكون فيها عين ولا أثر " أو هى " الأرض التى لم تزرع ولم تعمر ولا جرى عليها ملك أحد " .

وقد ناقش أحد دارسى الفقه الإسلامى المحدثين ما أورده اللغويون والفقهاء من مختلف النحل والمذاهب عن معنى الأرض الموات حتى توصل إلى أن الأرض الموات هى : " الأرض المعطلة عن الانتفاع المتجردة عن الحقوق والاختصاصات مع عدم استعدادها فعلا على الإنتاج والإثمار " [٥٢] .

وقد فرق الماوردى بين إحياء الأرض الموات للسكنى وإحياؤها للزرع ، فالذى يريد إحياء الموات للسكنى ، فإن هذا الإحياء يكون بالبناء والتسقيف لأنه أول كمال العمارة التى يمكن سكناها . وإن أراد إحياءها للزرع والغرس اعتبر فيها ثلاثة شروط [٥٣] :

١- جمع التراب المحيط بها حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها .

٢- سوق الماء إليها إن كانت يبسا وحبسه عنها إن كانت بطائح لأن الإحياء لليبس يكون بسوق الماء إليه ، أما إحياء البطائح فيكون بحبس الماء عنه حتى يمكن زرعها وغرسها فى الحالين.

٣- حرثها ، والحرث يجمع إثارة المعتدل وكسح المستعلى وطم المنخفض .

فإذا استكملت هذه الشروط الثلاثة كمل الإحياء وملك المحيى .

ويسمى الموات أحيانا بالأرض المباحة ، وذلك لعدم إحيائها بالزرع أو النبات ولعدم تملكها من أحد العباد ، وليس بها مرعى ولا محتطب لفئة من الناس . ولقد وضع لهذا الصنف من الأراضى أحكام خاصة أوجزها ابن السلام بثلاثة أوجه [٥٤] :

أ - أن يأتى الرجل الأرض الميتة فيحييها ويعمرها ، ثم يثب عليها رجل آخر فيحدث فيها غرسا أو بنيانا ليستحق بذلك ما كان إحياء الذى قبله ، روت عائشة عن الرسول (ﷺ) أنه قال : من أحيا أرضا وليست لأحد فهو أحق بها " . وقيل أن عمر بن الخطاب قد قضى بذلك إبان خلافته باعتبار أن الرسول قال " من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لعرق ظالم حق " . وتفسير العرق الظالم : " أن يعمل الرجل فى حق غيره ليستحق به شيئا ليس له " .

ب- أما الوجه الثانى : هو أن يقطع الإمام رجلا أرضا مواتا فتصير ملكا للمقطع (ملك عين ، وملك أو ملك منفعة) ، إلا أنه لا يحييها ولا يعمرها فيفرط فى حقه لأن هذا الحق لا يظهر إلا بظهور أثره والانتفاع به ، فيأتى شخص آخر ويؤدى هذه المهمة (مهمة الإحياء) غافلا عن أن لها ربا (صاحبا) . وهنا يختلف الحكم بالنسبة لصاحب الحق الأول ، فإن كان علم بإحياء صاحبه لمواته ثم سكت ولم يحذره فحكمه يختلف عن الآخر الذى لا يعلم بما يجرى فى مواته . ومهما يكن فإن عمر بن الخطاب قد قضى فى مسألة عرضت عليه من هذا القبيل ، وذلك بأن قوم الأرض غامرة (قبل الإحياء) وقومها عامرة (بعد الإحياء) وقال لأهل الأصل : " إن شئتم فردوا عليهم ما بين ذلك ، وخذوا أرضكم ، وإن شئتم ردوا عليكم ثمن أديم الأرض ثم هى لهم " [٥٥] .

جـ- ولا يـبقى إلا الوجـه الثالث ، وهو أن يحتجر الرجل الأرض ، ومعنى الاحـتجار هـو " أن يضرب عليها منارا أو يحفر حولها حفيرا ، أو يحدث مسقاة وما أشبه ذلك مما يكون به الحيازة " . أما الطوسى فيقول أن " التحجير أن يؤثر فيها أثرا لـم يبلغ به حد الإحياء " ، ثم يتركها معطلة بدون إنتاج . ويروى أن عمر بن الخطاب هو الذى جعل الحد الأقصى للتعطيل ثلاث سنين ويرد خبر استرداد عمر للعقيق الذى أقطـع مـن قبل النبى صلى الله عليه وسلم لبلال بن الحارث المزنى فى هذا المقام . ومـن أجل أن يبرر ابن سلام إجراء عمر هذا ، فإنه جعل أصل الإحياء إيصال الماء إلى الأرض الموات فقط " ، وذلك باشتقاق نهر أو استخراج عين أو احتفار بئر ، فإن فعل من ذلك شيئا ، ثم ابتنى أو زرع أو غرس ، فذلك الإحياء كله ، فإن لم يحدث فى الأرض أكـثر من ذلك الماء ، لم يكن منها إلا الحريم لما أحدث ويكون ما وراء ذلك لمن أحياه وعمره " (٥٦) .

ويؤكد البهى أن الاحتجار فى حد ذاته ليس إحياء للأرض ، بل هو " احتجار " لهـا تمهـيدا لإحـيائها فـيما بعـد ، وأشـار إلى رأى البعض فى أحكام الاحتجار ما يأتى (٥٧) :

١- أن المحـتجر لا يملك الأرض بالاحتجار ، لأن التمليك إنما يكون بالإحياء ، لا بمجـرد إحاطتها بعلامات تميزها ، لكنه يصير أحق الناس بها لقوله صلى الله علـيه وسـلم " من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم ، فهو أحق به " ، كما رواه أبو داود .

٢- وإن مـات فوارثـه أحق به لقوله صلى الله عليه وسلم " من ترك حقا أو مالا فهو لورثته " .

٣- فإن باعه لم يصح بيعه ، لأنه لم يملكه ، فلم يملك بيعه .

فالاحـتجار على هذا منزلة بين التمليك بالإحياء ، وبين الموات الذى لم يتعلق به ملك أو حق لأحد ، وهى منزلة تحل الحيازة لمدة ثلاث سنوات يكون صاحبها خلالها أحق من غيره بحيازتها ، فإذا انتهت المدة ولم يحصل الإحياء بطل حقه فى الحيازة ،

لقــول رسول الله صلى الله عليه وسلم " عادى الأرض لله ورسوله ، ثم هى لكم ، فمن أحــيا أرضا فهى له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنوات " ، ولما روى عن سالم بن عــبد الله بــن عمر أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه خطب على منبر رسول الله فقــال : " من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين " ، وذلك أن رجالا كانوا يحتجرون من الأموال ما لا يعملون " [٥٨] .

وواضح من هذا المبدأ ، أو هذا القانون أن الإسلام – رغبة منه فى تحقيق أهداف العمــارة العامــة – يســاير رغبات الناس فى الحيازة ، ويشجعهم عليها ، ويزيل من سبيلهم العقبات إلى أبعد مدى تسيغه الحكمة .

وتــوزع الفكــر الإقتصــادى الإسلامى فى بعض الفترات بين عدد من الآراء حول ماهية أو كيفية الإحياء ، أبرزها [٥٩] :

أولا – ربط الشافعى وأحمد كيفية تحقق الإحياء بالعرف ، بالقول " وإنما يكون الإحــياء ما عرفه الناس إحياء لمثل المحيا ، إن كان مسكنا ، فأن يبنى ما يبنى به مثله ممــن بنــيان حجــر ، أو لبن أو مدر ...وهكذا ، ما أحيا الآدمى من منزل له ، أو لــدواب مــن حظــار أو غيره فأحياه ببناء حجر أو مدر ، أو بماء ، لأن هذه العمارة بمــثل هــذا . . . وعمارة الغراس والزرع أن يغرس الرجل الأرض . . . وهكذا إن ساق إليها من نهر أو واد مشترك.

ثانيا – التركيز على تنمية الموارد المائية ، حيث ركز علماء ذلك العصر على ربط الإحياء بتنمية الموارد المائية ، فقال أبو عبيد : " وأصل الإحياء إنما هو بالماء ، وذلــك كاشتقاق نهر أو استخراج عين أو احتفار بئر ، فإن فعل من ذلك شيئا ثم ابتنى أو زرع أو غرس فذلك الإحياء كله " .

ثالــثا : ربط الإحياء بالتنمية الزراعية أو الصناعية ، حيث ربط كثيرون عملية الإحــياء بإحداث أى تنمية زراعية أو صناعية ، فأبو حنيفة وأصحابه ، ومالك وأحمد ربطــوا الإحــياء بالنــباء ، أو الغرس أو الحرث أو السقى أو الكرب (قلب الأرض للحرث ، وإثارتها للزرع) أو حفر الأنهار أو ما شابه [٦٠] .

ومـــن أشـــهر المشـــروعات الضخمة لاستصلاح الأراضى ، بطائح العراق ، والـــبطائح مســـتنقعات أو أرض كـــان يغمـــرها المـــاء فى أسفل العراق بين البصرة والكوفـــة . وســـببها أن دجلة انبثق فى أيام قباذ بثقا كبيرا بقرب كسكر ، فأغفل أمره حـــتى غلب ماؤه وأغرق كثيرا من الأرض العامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولى أنـــو شـــروان أمر بذلك الماء فزحم بالمسنيات (أى أقام الجسور على جانبى المجرى القديـــم) حـــتى عاد بعض تلك الأرض إلى العمارة ، ثم خلفه ابنه برويز ، وفى أيامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة فى السنة السادسة للهجرة لم ير مثلها ، وانبثقت بثوق كبار ، فجهد برويز أن يسكرها حتى ضرب أربعين سكرا فى يوم واحد فلم يقدر على رد المـــاء فظلـــت الحـــال علـــى ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت إليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤهـــا واتســـعت البطيحة وعظمت . ومع ذلك فقد كان خراج هذه الأرض المستنقعة كبيرا ، فإن عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان ، لكنهما قلما عنوا بأملاحها والانتفاع بالأرض المغمورة .

فلمـــا تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن إصلاح الرى . وفى أيامه انبثقـــت بـــثوق أخرى وكبرت البطائح فكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بخبرها وأنه قدر للنفقة على سدها ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم فاستكثرها الوليد ، فقال له أخوه مسلمة بـــن عـــبد الملـــك : " أنـــا أنفق على سدها من مالى على أن تعطينى خراج الأرض المنخفضـــة الـــتى يـــبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على أيدى ثقاتك " ، فرضى الوليد بذلـــك فحصـــلت للوليد أرض وطسا سيج كثيرة ، فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الأكـــرة (أى عمال الأرض) والمزارعين وعمر تلك الأرض . واستخرج للوليد أيضا مـــن الـــبطائح ثـــم لهشام بعده مالا كثيرا ، ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بنى أمية [٦١] .

ولمـــا أفضـــت الخلافة إلى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم ، جعلوا همهم إحـــياء أرضـــه باحـــتفار الأنهـــر وإنشاء الجسور ، حتى تشابكت الترع فى السواد ، وأصبح ما بين دجلة والفرات سوادا مشتبكا غير مميز ، تخترق إليه أنهار من الفرات

. وقس على ذلك سائر أنحاء العراق . وهو لم يصر إلى هذا الخصب والرخاء إلا فى أيـام العباسـيين لارتـياح الناس إلى العمل ورغبة الخلفاء فى تعمير البلاد مع قابلية الأرض لذلك [٦٢] .

والـبطحاء أصـله المسـيل الواسع فيه دقاق الحصى . وقال النضر : الأبطح والـبطحاء بطن الميثاء والتلعة والوادى ، وهو التراب السهل فى بطونها مما قد جرفه السـيول يقال : أتينا أبطح الوادى ، وبطحاءه مثله وهو ترابه وحصاه والسهل اللين ، والجمـع الأباطح ، وقال بعضهم : البطحاء كل موضع متسع ، وقول عمر رضى الله عـنه : بطحـوا المسجد أى ألقوا فيه الحصى الصغار ، وهو موضع بعينه قريب من ذى قار ، وبطحاء مكة وأبطحها ممدود ، وكذلك بطحاء ذى الحليفة [٦٣] .

علـى أن ذلك لا يعنى أن الجهد قد انصب فقط على (استصلاح الأرض)، إذ – والحـق يقـال – تحدثـنا كتـب التاريخ والجغرافيا عن أرض أخرى كانت عامرة ومـزروعة ومزدهـرة ، ثم امتدت إليها يد الإهمال والتخريب فأصابها ما أصابها من اضـمحلال زرع وتدهـور نباتات [٦٤] ، ومن ذلك بلدة (اسفيجاب) من أعيان بلاد ما وراء الـنهر فـى حدود تركستان ، كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشـجرا ومياها جارية ورياضا مزهرة ، ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خـراج علـيه إلا أسفيجاب لأنها كانت ثغرا عظيما ، فكانت تعفى من الخراج ، وذلك ليصـرف أهلهـا خراجها فى ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض ، وكذلك كـان مـا يصاقبها من المدن نحو طراز وصبران وسانيكث وقاراب ، حتى أتت على تلك النواحى حوادث الدهر وصروف الزمان ، التى يحددها ياقوت من جهة (خوارزم شـاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان بن آق سنقر بن محمد ابن أنوشتكين) ، فإنه لما ملـك ما وراء النهر وأباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلمـا لم يبق منهم أحدا ، عجز عن حفظ تلك البلاد لسعة مملكتها فخرب بيده أكثر تلك الثغور وأنهبها عساكره ، فجلا عنها أهلها وفارقوها ، " فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشـها تـبكى العـيون وتشجى القلوب منهدمة القصور متعطلة المنازل والدور ،

وضـــل هادى تلك الأنهار وجرت متحيرة فى كل أوب على غير اختيار ، ثم تبع ذلك حوادث فى سنة ٦٦١" [٦٥] .

أشكال استغلال الأراضى :

تعـــددت أشـــكال استغلال الأراضى الزراعية فى العصور الإسلامية المختلفة بحيث يمكن ردها إلى الأشكال التالية :

١- **الإقطـــاع** : الإقطـــاع والالـــتزام قريبان من أحدهما الآخر حتى أن بعض الباحثين عدهما تسمية لمدلول واحد ، ولكن الباحث المدقق يرى بينها فرقا ، فالإقطاع تســـليم ســـاحة من أرض الخراج لصاحب عطاء لتكون غلتها بدل عطائه ، وقد يكون ذلـــك بصـــفة شخصية وقد يكون بوصف المعطى موظفا ، كالقائد يمنح الإقطاعة له ولجـــنده فـــيوزعها علـــيهم على هذا النظام ، أما الالتزام فهو تسليم مساحة من أرض الخـــراج لمـــن يديـــرها ويشـــرف علـــيها باسم الدولة ويحيى خراجها تبعا للشروط الموضوعة مع سكان الأرض ، ويلتزم بتسليم الدولة مقدارا معينا منه وله الباقى نظير عمله وإشرافه .

والإقطـــاع علـــى الوضـــع المذكور آنفا جائز على ألا تكون فيه خسارة على الدولـــة ، أى بحيـــث يكـــون نتاج الأرض ليس أكثر من عطاء المقطع ، أما الالتزام المذكـــور آنفـــا فـــلا يجوز لغير ضرورة ، ويمكن أن يباح منه ما يشبه وضع عامل الزكاة ، أى أن يجمع الملتزم الخراج ويقدمه للدولة وله نظير ذلك قدر معلوم [٦٦] .

هـــذا هو النهج الإسلامى فى الموضوع ، وهو ما سار عليه الرعيل الأول من قـــادة المســـلمين ، وقـــد أقطع بعض الخلفاء من أرض السواد إقطاع إجارة لا إقطاع تمليـــك ، فكـــان علـــى المقطع أن يدفع عنها ما يوازى الخراج تقريبا ، فلما كان عام الجمـــاجم ســـنة ٨٢ فى فتنة ابن الأشعث أحرق الديوان وأخذ كل قوم ما يليهم . ولكن الـــتاريخ يثبـــت لـــنا أن الإقطاع والالتزام حصلا بعد ذلك على أسس اختلفت قليلا أو

كثيرا عن الأسس السابقة ، فقد أعطيت الإقطاعات منحا للأقارب أو الأصهار أو الأصدقاء وأصبحت إقطاع تمليك .

وقد عرض الماوردى لقواعد الإقطاع ، وميز فى مستهل كلامه إقطاع التمليك وإقطاع الاستغلال [٦٧] :

١- أما إقطاع التمليك ، فتنقسم فيه الأرض إلى ثلاثة أنواع :

أ - موات ، وهى الأرض التى لا أثر فيها للزرع ولا مالك لها ، وهى تقطع لمن يعد بزرعها ولا يدفع شيئا عنها ثلاثة أعوام (يقابل هذا ما يسمى Emphyteusis عند الرومان) وهو يدفع بعد ذلك أجرا عنها يحدد بالتزايد . ولكن الأرض كانت توزع فى الغالب نظير أجر محدد يرون أنه غير قابل للزيادة ، وإذا لم يعمل على إحيائها فيمكن أن تؤخذ منه فى نهاية السنوات الثلاث إلا إذا كان ذلك لعذر ظاهر ، وإما أن يقطع الأرض لمدة طويلة مع حق التصرف فيها فى مقابل مبلغ معين يدفعه ، فهى ملك له بصورة من الصور ، وإن كانت الأرض عامرة ثم خربت فصارت مواتا فإن كانت جاهلية كان حكمها حكم ما سبق ، وإن كانت إسلامية ، فقد اختلفوا فيها .

ب- وإذا كانت الأرض عامرة ولها مالك ، فقد تقطع لشخص ما إذا كانت فى بلد معادية ، ووعد بإقطاعها قبل الفتح . ويصبح المقطع أحق الناس بما أقطع بعد الفتح إذا هرب أصحابه أو هلكوا والأرض المفتوحة التى ليست ملكا خاصا - كأن تكون من أملاك الحاكم السابق أو مملوكة للسكان الذين هربوا - يضم جزء منها إلى بيت المال وهى تؤجر ولا تملك . أما الأجزاء الأخرى ، فتصبح أرض خراج ، وهى إما أن تكون أرض فئ وتحبس وبذلك تؤجر فقط ولا تصبح ملكا خاصا للمقطع ، وإما أن تظل فى يد مالكها (غير المسلم) وهى لا تقطع ، والخراج المأخوذ عنها يحل محل الجزية .

والأرض التى تضاف إلى أملاك الدولة - لموت صاحبها دون وارث شأنها شأن الأملاك العامة ، ويذهب بعض الفقهاء إلى أن للحكومة حق التصرف فيها ، وفى

هـذه الحالـة إما أن تصبح إقطاع استغلال كما يذهب البعض ، وإما أن تصبح إقطاع تمليك كما يذهب البعض الآخر .

جـ- إقطاع المعادن ، ولا مجال للحديث فيه هنا .

٢- إقطـاع استغلال ، وهو إنما يكون عوضا وضمانا لما ينبغى أن يدفعه بيت المال للرعية ، ولهذا ينبغى أن يكون ما يستحقه الشخص فى بيت المال معلوما مقداره قـبل الإقطاع حتى إذا أرادت الدولة أن تقطعه ما يستغله أعطته ما تكون غلته موازنة للاستحقاق . وهو على ضربين :

أ- إقطاع عشر .

ب- إقطاع خراج .

ولا مجـال للإفاضـة فـى الحديـث عـنهما فهى مسائل أدخل فى باب الفقه والتشريع .

ومـن الناحية التطبيقية الفعلية نجد أن البلاد العربية والإسلامية شهدت صورة مـن صـور النظم الإقطاعية ، وهى وان اختلفت عن الإقطاع الأوربى المعروف فى أبرز مظاهره ، إلا أنها لم تخل من السوء الذى هو سمة المجتمعات الإقطاعية الجامدة فـى الشـرق والغرب على السواء . جاءت هذه التنظيمات ، نتيجة للضعف الذى ألم بالخلافـة العباسـية فـى بغداد يوم استبد بها الموالى من غير العرب ، بحيث لم يعد للخلـيفة العباسـى من السلطة إلا اسمها ، أو كما عبر بعض المعاصرين " لم يبق له سـوى السـرير والمنـبر والسـكة والخـتم علـى الرسـائل والصكوك والجلوس للوفود .." [٦٩] .

ومـن قـبل رفض عمر بن الخطاب إقطاع أرض السواد كما مر بنا . وكذلك رفـض علـى بـن أبى طالب وحذر الأشتر النخعى واليه على مصر سنة ٣٦هـ - ١٥٦م من الإقطاع وذلك فى كتاب بعث إليه :

" إن الوالـــى خاصـــة (وبطانـــته) ، فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملـــة فاحســـم مـــادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاميتك وحاشـــيتك قطيعة" .. وما قيل عن إقطاعات عثمان بأرض السواد كان ذلك كما يقول الماوردى :" إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك" .

والجديـــد فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، أن المستبدين بشـــئون الخلافـــة العباســـية أقطعـــوا وأساءوا التصرف ، ليس فقط فى إقطاع البلاد والقـــرى ، ولكـــن أيضا فى إقطاع مال المسلمين لأنصارهم وحواشيهم . فعل ذلك بنو بويـــه ، ومن بعدهم السلاجقة الذين رأوا أن يحلو الإقطاعات محل العطاء أو الرواتب لـــرجال الجـــيش ، وهـــذا ما بدأه (نظام الملك) وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، ونقلته عنه الدولة النورية ثم الدولة الأيوبية ، وبلغ الذروة فى دولة المماليك [٧٠] .

يقول المقريزى فى خططه [٧١] :

"واعلـــم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمـــراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات [٧٢] معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرها . لا يعرف هذه الأبذة التى يقال لها الـــيوم "الفلاحة" . ويسمى المزارع المقيم بالبلد " فلاحا " قرارا ، فيصير عبدا قنا أقطع تلـــك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ومن ولد له كذلك .." .

والإقطاعـــات لا تـــورث ، بـــل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ليعود الســـلطان بدوره فيها لمن يشاء ، ولمن يستحقها من جديد . ومن هنا نفهم السر فى أن الأمـــراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ، لمصلحتهم الخاصة ، لكى يحوزوا من المال البعيد عن الإقطاع ، الشىء الكثير . وكثيرا ما كانوا يستعينون علـــى اســـتبقاء مـــا فى أيديهم من ممتلكات بوقفها حتى لا تمتد إليها يد السلطان فى حياتهم أو بعد موتهم وحتى ينتفع بها ذراريهم وأفراد الشعب على كل حال محرومون

الملكـية أو الانـتفاع مـن أراضى بلادهم الزراعية إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل ، أو المعونة من مال الأوقاف (٧٣) .

وقـد نقل " سليم " عن ابن خلدون قوله : " ولقد وقع لهذه العصور بمصر منذ مائتيـن مـن السنين فى دولة الترك من أيام صلاح بن أيوب ، وهلم جرا . وذلك أن أمـراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطاتهم على من يتخلفون من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، واستكثروا من بناء المـدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاء لولدهم بـنظر عليها أو نصيب فيها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال ، فكثرت الأوقاف " (٧٤) .

علـى أن السلطان كان يتصرف أحيانا فى الإقطاع فيسترده من صاحبه لدواع مـن الرضـا أو الغضب ، فيمنحه إقطاعا آخر جديدا أكثر غلة ، أو يحرمه فيرسله " طـرخانا" أى – عاطلا – وينفيه إلى القدس أو مكة مثلا كما أن بعض السلاطين كان يجـترئ على ما أوقفه أمراؤه فيأمر بحله . وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بحل ما أوقفه الأمير بيبرس الجاشنكير وسلار نائب سلطنته (٧٥) .

والدولة التى يمكن أن تمثل الظاهرة الإقطاعية فى التاريخ الإسلامى حقا ، هى الدولـة المملوكـة بحيـث يمكن القول بأن المجتمع العربى فى البلاد التى احتلتها هو بـالفعل مجـتمع إقطاعى ، والمجتمع الإقطاعى حيثما يكون فى الشرق أو فى الغرب مجـتمع جـامد طبقى البنيان والمظهر والمخبر وحقوق الفرد فى هذا المجتمع تختلف بحسـب الطـبقة الـتى ينتمى إليها الفرد نفسه ، والعلاقة بين الطبقات نفسها تختلف باخـتلاف وضـعها فـى المـدرج الإقطـاعى ، ولهـذا استطاع السبكى والقلقشندى والمقريـزى تقسـيم المجـتمع المملوكـى فى سهولة ، ومن زوايا مختلفة ، فجاءت تقسـيماتهم متشـابهة فـى عمومياتها فبينما تحدث السبكى عن هذا المجتمع من حيث أفـراده وعناصره ووظائف كل فرد ، وما ينبغى عليه مبتدئا بالسلطان ومنتهيا بأرباب الحـرف ، فصـل القلقشـندى فى كثير من خصائص هذا المجتمع من حيث الألقاب

والملابس وأنواع الوظائف . أما المقريزى ، وهو صاحب التقسيم الاقتصادى فقد جعل المجتمع المملوكى سبعة أقسام وهى أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار ، وأولو النعمة من ذوى الرفاهية ، والباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ثم أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، وأرباب الصنائع والإجراء أصحاب المهن ، وأخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

ويستخلص من هذه التقسيمات أن المجتمع المملوكى ثلاث طبقات كبرى تضم كل منها فروعا طبقية صغيرة . وهذه الطبقات الكبرى هى : رجال السيف أو الطبقة الحربية الأرستقراطية بعناصرها المختلفة ، ورجال القلم من موظفى الدواوين والقضاة ورجال التعليم وأهل التصوف وطلاب العلم ، وأرباب الحرف المختلفة بين تجارة وصناعة وزراعة [٧٦] .

ويقع المواطنون سواء من المصريين أو الشاميين أو الحجازيين أو اليمنيين ، وكذلك المستوطنون والواردون من الفرنجة والجنويين والبنادقة والمغاربة غيرهم من الخاضعين للمماليك ضمن الطبقتين الأخيرتين .

وقد تركزت غالبية الإقطاعات فى رجال السيف ، وتنصرف كلمة رجال السيف إلى السلطان وأمرائه وأجناده أى إلى الجيش المملوكى بأجناسه وفرقه المختلفة ، وكذا أصحاب الوظائف الإدارية من هذا الفريق وهم الولاة والكشاف حتى لقد أصبحت كلمة الإقطاع ترادف فى بعض الأوقات " الجندية " .

وفى تقديرنا أن ما حدث من تدهور سياسى فى أواخر الدولة المملوكة كان من أسباب التدهور الاقتصادى بقدر ما كان نتيجة له ، وإذا قلنا تدهورا اقتصاديا ، فإن معنى ذلك تدهورا فى حالة الأرض الزراعية وإنتاجها نظرا لما كان يشكله هذا الإنتاج من نسبة كبيرة فى اقتصاديات مصر والشام بصفة خاصة [٧٧] .

ذلـــك أن الـــنظام الإقطاعى المملوكى الذى اعتمد على الأرض وإنتاجها بشكل أساســـى قد استهدف أيضا عدم التمكين لقيام أسرات إقطاعية قوية ، ففرق الإقطاعات فـــى أنحاء متفرقة ، كما كان الإقطاع يتغير مع تغير وظيفة صاحبه ، وكانت النتيجة الحتمـــية لذلك أن حرص كل صاحب إقطاع أن يكون لنفسه الثروة بقدر الإمكان دون الاهـــتمام بوسائل زيادة إنتاج الأرض ، مثل الجسور والترع وغيرها . وفى النهاية زاد اعتماد أبناء الطبقات الحاكمة على الرواتب النقدية لكى يحافظوا على حياة الترف والـــبذخ التى عاشوها ، على حين كان إنتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها قد تواضع إلى أدنى حدوده وكانت النتيجة مزيدا من استنزاف رصيد البلاد من الذهب والفضة ومزيدا من التدهور الاقتصادى والأزمات الاقتصادية .

فإذا ما أردنا تجميع وتلخيص أبرز العوامل التى أدت إلى انهيار نظام الإقطاع فى عهـــد الدولـــة المملوكية التى كان سلطانها يشمل مصر والشام والحجاز ، فسوف نجد أنها كانت كما يلى [٧٨] :

- كونـــه اســـتغلاليا ، حيث كان للمقطع استغلال عائد إقطاعه طوال فترة خدمته ، ثم علـــيه تـــركه بعـــد ذلـــك ، وارتـــبط هذا الإقطاع بالوظائف والخدمات التى يؤديها المقطعون للدولة ، ومن ثم أدى ذلك إلى عدم اهتمام المقطعين باستصلاح الأراضى وعـــدم الســـكن فـــى إقطاعـــاتهم والاعتماد على إرسال مندوبين يقومون بتحصيل الإيرادات من الفلاحين مهما كانت الوسائل المؤدية إلى ذلك .
- انتشـــار ظاهـــرة التنازل عن الإقطاع أو مبادلته وذلك بسبب حاجة الدولة إلى المال فى بعض العهود .
- توزيـــع الإقطاع الواحد فى عدة أقاليم متفرقة بالدولة [٧٩] ، وكانت الدولة تهدف من ذلك إلى عدم إقامة أرستقراطية إقطاعية والحد من نفوذ الأمراء وإنهاكهم .
- كـــثرة الولاية والعزل للنواب أو الولاة ، فالتعاقب السريع على المنصب يشير على الاضـــطراب السياســـى ، وهذا الاضطراب يتيح الفرصة للبعض للإثراء الفاحش ، ويوقع الكثرة فى جب الفقر المدقع .

٢- **المخابـــرة والمزارعة** : فى الحديث : كنا نخابر ولا نرى بذلك بأسا حتى أخـــبر رافع أن رسول الله نهى عنها . وقد اختلف علماء اللغة فى أصل اللفظة ، قال بعضـــهم : هـــى من خبرت الأرض خبرا كثر خبارها . وقال بعض آخر . من خبير لأن النـــبى أقـــرها فى أيدى أهلها على النصف من محصولهم ، فقيل : خابرهم ، أى عـــاملهم فـــى خبـــير [٨٠] . و(الخبر) فى قول علماء اللغة : الزرع ، ومن هذه اللفظة يجـــب أن يكـــون أصل المخابرة ، ويظهر من اختلاف علماء اللغة فى تعريف المراد مـــن لفـــظ (المخابرة) التى تعنى المزارعة أنهم لما أرادوا وضع حد لمعناها ، وجدوا المخابريـــن ، أى المزارعيـــن أنماطا وأشتاتا فى تثبيت حصص المخابرة ونصيبها ، فحفـــظ كل ما سمعه ، وظن أن ما وعاه وسمعه هو المخابرة فجاءت تعاريفهم من ثم علـــى هـــذا الـــنحو ، ولو أخذناها ودققناها وجدنا أنها كلها شئ واحد هو : المخابرة المـــزارعة علـــى نصيب معلوم مما يزرع فى الأرض كما سبق وأن أشرنا [٨١] ، أما تثبيت الأنصبة ، فلا دخل له بالتعريف ، لأنه مجرد تعامل أشخاص واتفاق أفراد منهم مـــن كان يزيد فى النصيب ، ومنهم من كان ينقص منه ، حسب الحاجة على نحو ما يقع فى كل تعامل مثل البيع والشراء [٨٢] .

ولمـــا جـــاء المهاجرون إلى يثرب ، وكان بينهم قوم يحسنون الزراعة وكانوا يريدون عملا يتعايشون منه ، حاقلوا (زارعوا) أصحاب الأرض على زرع أرضهم فـــى مقـــابل نصيب معلوم كانوا يتفقون عليه ، وقد نجح بعضهم فى استغلال الأرض وكســـبوا مـــنها ، غـــير أن قسما منهم اختصموا مع الملاك بسبب توزيع الحاصل أو المـــاء ، فكـــان الرسول صلى الله عليه وسلم يتداخل بنفسه لحسم الخلاف ، وقد صار الصـــحابة مـــن أهل مكة بين تاجر وبين زارع ، ورد فى حديث (أبى هريرة) :" لم يشـــغلنى عـــن النبى غرس الودى ، أى صغار النخل " [٨٣] . وورد أن الأنصار قالوا للمهاجريـــن : تكفونـــا المؤونة فى النخل بتعهده بالسقى والتربية ونشرككم فى الثمرة واتفقوا على ذلك [٨٤] .

وقـــد نهـــى الإســـلام عن المحاقلة والمزارعة والمؤاكرة . وذلك لما كان يقع بســـببها مـــن خلاف بين المالك والفلاح ، وما كان يقع من ظلم فى القسمة أو اختلاف

على توزيع الحاصل ، فلما جاء الرسول إلى يثرب ورأى الخصومات هذه ، نهى عن إيجـار الأرض وكـرائها بقوله : " من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها ، فإن لم يفعـل فليمسـك أرضه " . وفى رواية أخرى أنه لم يحرم المزارعة ، ولكن قال أن يمنح أحدكم أخاه خير من أن يأخذ شيئا معلوما .

وقـد ذكر العلماء أن هذا النهى إنما وقع بسبب المنازعات التى كانت تقع فيما بين الطرفين المتعاقدين لاتفاقهما على شئ مجهول ، وذكروا مثلا آخر على ذلك وهو كـرى المـزارع علـى الأربعـاء وبشئ من التبن . والربيع هو النهر الصغير فتقع المـنازعة ويبقى المزارع أو رب الأرض بلا شئ . وقد كانوا يتعاقدون على ما ينبت علـى ربـيع السـاقى ، أى الـنهر الـذى يسقى الزرع ، فيقع اختلاف بين المزارع والمـالك ، أى بين صاحب الماء والمزارع [٨٥] ، أما إذا كان الاتفاق على شئ واضح معلـوم فـى مـثل استئجار الأرض البيضاء من السنة إلى السنة ، أو فى آجال يتفق علـيها بالذهـب والفضـة ، أى بالدنانير والدراهم ، فقد جاز ذلك كما ورد فى كتب الحديث [٨٦] .

٣- **المسـاقاة** : وتكون فى النخيل والكروم (أى فى الشجر) على الثلث والربع ومـا أشبه وهى أن يدفع فلان فلانا نخلة وكرمه " واستعمله فيه على أن يعمره ويسقيه ويقوم بمصلحته من الآبار وغيره . فما أخرج الله منه فللعامل سهم من كذا وكذا سهما مما تغله ، والباقى لمالك النخل [٨٧] .

وقـد يخصص الماء كله بالزرع ، أى يكرى كله لمؤجره ، وقد يكرى لما يسد حاجـة الـزرع ، أى لإرواء الـزرع الذى اتفق على إسقائه بالماء فى كل وقت ، فى الـنهار أو الليل ، وفى أى لحظة يشاء المستأجر لذلك الماء ، وقد يكون على حظ من الماء مثل ربع يوم أو ليلة ، أو يوم معين أو وقت يثبت ، ويقال لهذا الماء (ربيع) ، أى حظ [٨٨] .

وطالمـا وقعت الخصومات بين المزارعين بسبب اختلافهم على الماء ، فالماء هـو رأس مـال المزارع ، فإذا انقطع عن زرعه ، تأثر زرعه ، وتعرض للهلاك ،

وزرعـــه هو رأس ماله وحياته ، ومن هذا القبيل الخصومات التى تقع بسبب اشتراك جملـــة مزارعيـــن فى مورد ماء واحد ، ومحاولة كل واحد منهم الحصول على أكبر مقـــدار مـــن المـــاء ، أو أخـــذه قبل غيره . والخصومات التى تقع من سبل الماء فى الشـــرائج . والجـــداول الـــتى تمر فى عدة مزارع والينابيع والعيون التى تروى جملة أحـــواط ومحـــاقل .وقـــد أشـــير إلـــى جملـــة أنـــواع من هذه الخصومات فى كتب الحديث [٨٩] .

٤- الإلجـــاء : ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة إلجاء الأهـــالى ضـــياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززا بهم من جباة الخـــراج ، فكـــان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضـــيعته باسمه ، فلا يجروء الجباة على العنف أو الظلم فى اقتضاء خراجها ، بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير : ويجعل صاحب الضيعة نفســـه مزارعا له ، ويدون ذلك فى دفاتر الحكومة فتصبح تلك الضيعة بتوالى الأعوام ملكـــا للملجأ إليه ويصبح صاحبها الأصلى شريكا فى غلتها ، ومثل هذا الإلجاء يحدث فى كل العصور فى البلاد التى يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم .

وقـــد بدأ الإلجاء فى الإسلام فى أيام بنى أمية لما كان من ظلم عمالهم ، فألجأ أهـــل الســـواد فى ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم إلى مسلمة المذكـــور تعـــززا بـــه من جباة الخراج ، ثم صارت تلك الضياع له وبقيت فى أعقابه حـــتى قامت الدولة العباسية ، فاستولى الخلفاء العباسيون عليها فى جملة ما استولوا عليه من أموال بنى أمية وضياعهم ، وأقطعت هذه الضياع لداود بن على بن على بن عـــبد الله بـــن عـــباس ، ثـــم صارت من الضياع السلطانية . وكذلك فعل بعض أهل المـــراغة فى أذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى أرمينية فإنهم ألجأوا تلك الضيعة إليه فقبضت فى جملة ما قبض من ضياعهم [٩٠] .

ولـم يـنقض عصر الازدهار حتى أصبح فى حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولـتهم ما لا يحصى عدده من الضياع ، واضطرت الحكومة إلى إنشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه " ديوان الضياع " وهو غير ديوان الخراج .

ولعـل ما لوحظ فى زمن الأمويين من هجرة الفلاحين من مناطقهم الريفية إلى الأمصـار الجديدة (المدن) يكمن سببه فى أن كبار الملاك من العرب والملاك القدامى الذيـن لم تصادر أراضيهم رغم قلة عددهم وربما لصغر مساحة ملكيتهم إذا ما قيست بمجمـوع الأرض المزروعة ، قد ساهموا بتخريب حياة الفلاحين فى الريف وتدميرها ، إذ كـان بإمكانهم أن يمارسوا وسائل متعددة للضغط على الفلاحين والمزارعين كيما يـتخلوا عمـا فـى حوزتهم من الأراضى المزروعة سواء كان هذا الضغط من قبل المـلاك العرب أنفسهم أو من الجباة المتعسفين الذين لا يستبعد احتمال دفعهم من قبل الملاك بزيادة التعنت والقسوة فى الجباية ، أو عن طريق تدمير مقصود لمنشآت الرى والسقى وحرمانهم من المياه عصب حياة الزراعة [٩١] .

مجتمع الفلاحين :

نظرا لامتداد رقعة العالم الإسلامى ، فقد تنوعت وتعددت فئات الفلاحين الذين كـان يقـع علـيهم فعل الفلاحة ، فإذا ما أخذنا صفة ونوع الأرض التى عاش عليها الفلاحون فإن التمييز بينهم يمكن أن يسير وفقا للتقسيم التالى : [٩٢] .

١- فلاحـو الأراضى الخاصة : وهم الذين يعملون فى الأراضى التى تخص الأفراد ، وهم فى أغلب الظن يشبهون الأقنان أو العمال الزراعيين ، بغض النظر عن طبـيعة العلاقـة التى تربطهم بمالك الأرض أو بطريقة عقد العمل معه ، سواء أكان أجـرهم علـى شـكل مقاسمة (محاصصة) أو بالأجر النقدى أو العينى ، موسمى أو سنوى .

٢- فلاحـــو أرض الخـــراج : وهـــم الذين يعملون على أراضى تعود ملكيتها للدولـــة ، وبذلك فهم أقرب ما يكونوا إلى الفلاحين الأحرار ، مرتبطين بالأرض بقدر حاجتهم إليها ، إذن فهم فلاحون يعملون لدى الدولة .

٣- فلاحو الخليفة : وهم الذين يعملون على أرض الصوافى التى تعود ملكيتها للخليفة ولعل هؤلاء يلاقون عنتا واضطهادا أكثر من الآخرين ، حيث يجهد متولو هذه الأرض أنفسهم وفلاحيهم كى يوفروا أكبر غلة وتحقيق أعلى ريع لسيدهم الخليفة دون خشـــية مـــن أن يعترضـــهم الوالى أو غيره على تصرفاتهم التعسفية . ولكن من جهة أخـــرى يمكن أن نفترض أن إيراد فلاحى أرض الخليفة كان أكثر من إيرادات أقرانهم العاملييـــن فى الأنواع الأخرى من الأراضى ، وذلك بحكم أن أراضى الصوافى كانت فـــى الغالـــب فـــى منزلة أفضل من حيث خصوبتها وموقعها مع الأرض الخراجية ، بشـــكل خـــاص ، وبالتالى فإنها كانت ذات مردود أعلى ، وربما كان هذا ينعكس على منتجى غلتها ، بازدياد حصتهم منها .

٤- فلاحـــو أرض الصلح : وهم يشكلون أقلية بحكم قلة نسبة أرض الصلح فى الســـواد . غير أن فرض الضريبة عليهم على أساس جماعى قد سبب لهم أضرارا فى دخولهـــم الماديـــة ، لكن بالوقت عينه ، فإن الإشارات العديدة عن تحديد هذه الضريبة يضعف من هذا الاحتمال .

وكانـــت الجمهـــرة الكبرى من الفلاحين تسكن القرى ، وفى حالة واضحة من الفقـــر وكانوا يقنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم حتى ليذكر بعض المؤرخين [٩٣] أن مـــنهم مـــن لـــم يـــر الدينار طوال عمره ، فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانـــير جـــزافا ، ويهـــبونها مئات وألآفا ، وأهل القرى فى فقر مدقع لو رأى أحدهم الديـــنار لقـــبله مثنى وثلاث . ولو دفعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لإصابة خبل أو مـــات لســـاعته ، كما اتفق لمزارع لم يكن عمل يده فى الأرض بكفيه ، فكان يشتغل بالإضـــافة إلى ذلك بالصيد . فقد كان ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجـــرة ، وهـــو مشـــهور بكـــرمه وبذخـــه ، بمـــا أنشـــأه مـــن القصور والغياض والاصـــطبلات ، وكـــان ينفق كل شهر ألف دينار على القراء ، وهو الذى جاء وكيله

يومـــا وقـــال : " إنـــى تأتينى المرأة وعليها الإزار وفى يدها خاتم الذهب فتطلب منى فأعطيها " فقال له : " من مد يده إليك فاعطه " .

ومـــع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب فى غداة باردة إلى جهات المقس بجوار القســـطاط ، فأصاب بشاطئ النيل هذا القروى يصطاد عليه خلق لا يوارى منه شيئا ، ومعـــه صـــبى فـــى مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة فى البحر ، فلما رآه ابن طولون رق لحالـــه وقـــال : يا نسيم : ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ولحق ابن طولون فســـار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتا والصبى يبكى ويصيح . فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله لأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبى عن أبيه ، فقال لـــه الغلام : " هذا (وأشار إلى نسيم الخادم) دفع إلى أبى شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميـــتا " ، فقـــال : " فتشه يا نسيم " ، فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصـــبى أن يأخذهـــا فـــأبى وقال :" هذه قتلت أبى وإن أخذتها قتلتنى ! " فأحضر ابن طولـــون قاضى المقس وشيوخه وأمرهم أن يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينار تكون لهـــا غلة وأن تحبس عليه وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : " أنا قتلت أباه لأن الفـــتى يحـــتاج إلى تدريج وإلا قتل صاحبه هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينه " [٩٤] .

وكمـــا ســـبق أن أشرنا ، فقد كانت الأرض فى بلد مثل مصر هى (ترمومتر) مخـــتلف ألوان الحياة فى المجتمع وعلى رأسها بطبيعة الحال ، حياة الفلاحين ، نموهم بـــنموها ، وفقـــرهم بجدبها .. وهكذا ففى عام ٦٩٥هـــ فى عهد كتبغا : أجدبت البلاد وشـــح النيل وارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر الإردب من القمح مائة وسبعين درهما ، وكذلـــك الفـــول ، ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وبيعت البيضة بأربعة دراهم ، وبيعت الـــتفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهمـــا . واشـــتد الأمـــر علـــى الـــناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمـــال ، وحتى لم يبق عند أحدهم شئ من الدواب . وقيل كان يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم ! ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة ، فأقـــبلوا علـــى تناوله ، وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين ، " وقد عم الغلاء سائر

البلاد المصرية والشامية والحجازية وكل ممتلكات مصر ، وقد أعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفى الطرقات . وقيل أن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته فى مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان .." (٩٥) .

وكانت النظرة الاجتماعية للفلاح فى عصر سلاطين المماليك ، وفى عصور أخرى ، نظرة قاسية ، تمثلت أول ما تمثلت فى وصف المعاصرين للفلاح بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر وانحطاط الأسلوب والتصرف (٩٦) ، جاء ذلك فى معظم المؤلفات المعاصرة ، ومن يتصفح كتاب (هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف) يدرك أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا لإثبات هذه الصفات فى الفلاح ، بل ربما استعان المؤرخون المعاصرون ببعض أبيات من الشعر للاستشهاد على ذلك ، فكتب (ابن إياس) يقول :

ورب قحف قد أتى　　لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى　　هذا من النخل سقط

وقال آخر : ثيرانهم قد أخبرت عنهم　　بأنهم من طينة واحدة !

وكذلك : أهل الفلاحة لا تكرمهم أبدا　　فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم　　سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا

وشهدت مصر فى عهد المماليك الجراكسة حركة بيع لأملاك بيت المال ، زادت الهوة بين الشرائح العليا والشرائح السفلى ، وتكشف دراسة حديثة عن بعض الحقائق فى هذا الشأن (٩٧) :

أولا – أن أكثر من نصف حالات البيع من أملاك بيت المال فى هذا العصر ذهبت إلى الطبقة الحاكمة ، متمثلة فى السلطان وأمراء المماليك الذين حصلوا على ٥٤,٢ % من حالات البيع ، بينما يشكلون ٤٣,١ % من المشترين ، الأمر الذى يعنى أن عددا منهم قام بالشراء من بيت المال أكثر من مرة .

ثانـيا – أن ٢٠,٢ % مـن حـالات البـيع كانت لأشخاص مرتبطين بأمراء المماليك ، كـأولاد الـناس وزوجات المماليك وعتيقاتهم وجواريهم ، ويشكل هؤلاء مجتمعون ٢٦,٨ % من إجمالى عدد المشترين من بيت المال فى ذلك العصر ٠

ثالـثا – شكلت حالات البيع لأشخاص من أصول غير مملوكية نسبة ٢٥,٦ % بينما شكل هؤلاء نسبة ٣١,١ % من المشترين ٠

وتضـعنا هذه المؤشرات أمام صورة تقريبية للطبقة التى انتقلت إليها ملكية قسم كبـير مـن الأراضى الزراعية فى مصر فى عصرُ المماليك الجراكسة ، وهى طبقة يمكـن تقسـيمها إلـى ثـلاث فـئات رئيسـية وفقـا لأصـولها العرقية ووظيفتها الاجتماعية (٩٨) :

الفـئة الأولـى : الطـبقة العسـكرية الحاكمة التى تتكون من السلطان وأمراء المماليك الذين يحترفون القتال ، ويشكلون قمة السلطة السياسية فى الدولة ، وقد ترتب على بيع جزء من أملاك بيت المال لهم تحولهم من حائزين للأراضى إلى ملاك لها ، بمـا فـى ذلـك السلاطين أنفسهم ، الأمر الذى يتيح استقرار الثروة فى أيديهم وأيدى ورثتهم الشرعيين من بعدهم ٠

الفـئة الثانـية ، تنتمى بصلة الدم أو الزواج أو الرق لبعض أفراد الفئة الأولى وتتكون بشكل أساسى من " أولاد الناس " ، ثم زوجات أمراء المماليك وجواريهم ٠

الفئة الثالثة : فتتكون من عناصر بعيدة تماما فى أصولها العرقية والوظيفية عن المماليك ، فأفـرادها من أصول عربية مختلفة أو مصرية ، وهم بعيدون فى الغالب عـن الوظـائف العسكرية ، وتشكل مشاركتهم فى امتلاك الأرض تغيرا ذا دلالة فى الوضع الذى ساد فى مصر لعدة قرون سابقة ٠

وإذا كـان لابـد للدولـة من ضرائب تفرضها على رعيتها لتكون وسيلتها إلى الإنفاق على شئونها إلا أنه من الضرورى كذلك أن تتوفر العدالة والمساواة ، والتبديل فيها والتغيير حسب مقتضيات الحال .

وإذا كانت الأراضى الزراعية ملكا للسلطان – كما بينا – يقطع منها من يشاء من أمرائه وجنوده فى حدود أربعة عشر قيراطا ، ويزرع (الفلاحون) هذه الأراضى ويؤدون ثمراتها للمقطعين فيؤدون بدورهم ما فرض عليهم للسلطان من خراج إقطاعاتهم ، إلا أن السلاطين المماليك وخاصة الأواخر منهم لم يتركوا ناحية يستطيعون منها فرض ضريبة إلا سلكوها ، وكثيرا ما فرضوها ظالمة فيها الشطط الكثير ، وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة ، بل كثيرا ما فرضوها للمصلحة الخاصة ، ولكى يسد بها السلطان من أفواه الثائرين عليه من الجنود ، وكثيرا ما انتهز السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب الفادحة بدعوى الإنفاق عليها (٩٩) .

وبلغ الظلم ببعض السلاطين أن واحدا منهم لم يستسغ أن يركب الفلاحون الخيول أو يشتروها خشية التقوى بها أو مناظرة السادة فى "مراكيبهم" ، كان هذا موقف السلطان صالح ابن الناصر ، فاستصدر رسما سنة ٧٥٤ هـ – ١٣٥٣م " بأن فلاحا لا يركب فرس ولا يشترى فرسا " (١٠٠) .

وتعرض هؤلاء أيضا لعمليات التسخير سواء فى الأعمال الخاصة أو العامة كما فعل قلاوون وابنه الناصر حفيده حسن حيث كان يقبض على الناس فى المساجد والأسواق ، بل لعل الأمير أتبغا عبد الواحد كان يرى مكرمة فى تحديد يوم واحد للسخرة من كل أسبوع فى بناء مدرسة سنة ٧٤٠هـ مما قربه مصادفه لما قاساه الأقنان فى الإقطاع الغربى " السخرة الأسبوعية " . كذلك تعرضت هذه الطبقة للمغارم ، حتى لقد اضطرت امرأة لبيع شجرة نبق بمنزلها بالحسينية وفاء بما فرضه عليها قايتباى سنة ٨٩٦ هـ – ١٤٩٠م لمواجهة الخطر العثمانى .

ولهذا ولغيره لم يقف الفلاحون مكتوفى الأيدى حين حانت الفرصة ، بل تربصوا بالظالمين الدوائر ، ويستوى فى ذلك أعمال العصيان أو الانتقام أو التمرد أو النهب مما يدل على بعض الوعى وبعض الشعور بالظلم تهيوءا للثورات الشعبية ، فلما جار الأمير شمس الدين أحد أمراء الناصر محمد ، على الفلاحين فى قسمة

المحصـــول وتوعدهم ، أضمروا له الانتقام ولحقوا به وصحبه الأمير : " فلما ركبنا ، لحقونـــا (كـــذا) الفلاحـــون وجابوا لنا بسيسة أطعمونا من حيث أكلنا البسيسة طربنا جمـــيعا ووصـــلنا إلـــى دمشق . وكانوا ستة نفر مات أربعة وتعلل اثنان " ، بل امتنع الفلاحـــون عن دفع الخراج لرسول طومنباى سنة ٩٢٢هـــ - ١٥١٦م والسلطان سليم فـــى طـــريقه إلى مصر ، وقالوا ما نقدر نعطى خراجا حتى يتبين لنا إن كانت البلاد لكم أو لابن عثمان فنبقى نورد الخراج مرتين " [١٠١] .

الهوامش

١- تاج العروس ، جـ٢ ، ص ٢٠٠.

٢- المفصل ، جـ٢، ص ٤٦.

٣- الحضارة الإسلامية ، جـ ٢، ص ٣٤٥.

٤- خطط المقريزى ، جـ ١، ص ٨٠.

٥- جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ٢، ص ٧٧.

٦- المرجع السابق ، ص ٧٨.

٧- المرجع السابق ، ص ٧٨.

٨- المرجع السابق ، ص ٧٩.

٩- يلحق العرب لون الخضرة بالسواد فتضع أحدهما محل الآخر ، من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين "مدهامتان " (الرحمن -٦٤:٥٥) أى خضروان ، فوصفت الخضرة بالدهمة وهى من سواد الليل . وقال الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد جـ١، ص ٢٤) فى موضوع آخر : إنما سمى السواد سوادا لأنهم قدموا يفتحون الكوفة فلما نظروا سواد النخل : قالوا : ما هذا السواد ؟

١٠- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، النهضة المصرية ، جـ ٢، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٤.

١١- المرجع السابق ، ص ٣٠٥.

١٢- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ، النهضة المصرية ، ١٩٧٩، ص ٣١٩.

١٣- الحضارة الإسلامية ، جـ ٢، ص ٣٤٥.

١٤- المرجع السابق ، ص ٣٤٦.

١٥- موسوعة تاريخ العلوم العربية ، ج٣ ، ص ١٠٧٧

١٦- المرجع السابق ، ص ١٠٨٦

١٧- نهاية الأرب ، جـ ١١، ٦.

١٨- سلمى الخضراء الجيوسى (تحرير) : الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج٢ ، ص ١٣٦٧

١٩- المرجع السابق ، ص ١٣٦٨

٢٠- المرجع السابق ، ص ١٣٦٩

٢١- المرجع السابق ، ص ١٣٧١

٢٢- الدلـــب : شجر عظيم ، ورقه يشبه ورق الخروع ، إلا أنه أصغر منه ، ومذاقه مر وله نوار صغير خفيف أصفر ، وقشر خشبه غليظ أحمر .

٢٣- نهاية الارب ، جـ ١١، ص ١٠.

٢٤- البـــنج هو الشيكران بالعربية ، بفتح الشين وضم الكاف وهو نبات مخدر مخبط للعقـــل له قضبان غلاظ وورق عراض وعلى القضبان ثمر فيه بزر شبيه ببزر الخشخاش .

٢٥- صنف من الصفصاف وهو كثير بأرض العرب .

٢٦- هـــو المعـــروف بالنجيل وهو نبات له أغصان ذات عقد ، طعمه حلو وله ورق طوال حادة الأطراف ، يعتلفه البقر وسائر المواشى .

٢٧- نهاية الأرب ، جـ ١١، ص ١١.

٢٨- هـــو صـــمغ الأنجذان وهو المعروف فى مصر بأبى كبير وأجوده المأخوذ من جبال كرمان وأعمالها .

٢٩- الخـــربق : نـــبات له ورق كلسان الحمل ، وهو أبيض وأسود ، وزهره أحمر اللون ، وله ساق جوفاء طولها نحو أربع أصابع .

٣٠- أى مواضع الأصول من الأرض .

٣١- نهاية الأرب ، جـ ١١، ص ١٢.

٣٢- الزراع أو الحراث .

٣٣- نهاية الأرب جـ ١١، ص ١٣.

٣٤- رحلة ابن بطوطة ، جـ ١، ص ١٨٣.

٣٥- المرجع السابق ، ص ٢٧٢.

٣٦- نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٣٨.

٣٧- كان الرومان يعرفون أن الأرض سرعان ما تجهدها الزراعة المتوالية ، وحاولوا علاجها تارة بأنواع المخصبات (الأسمدة) وتارة أخرى ، زراعتها بأنواع معينة من المحصول من شأنه تقوية الأرض ، غير أنهم فضلوا نظام الحقلين ، فيزرعون النصف ويريحون النصف الآخر . وقد سارت هذه الطريقة فى العصور الوسطى فى كل جنوب أوروبا كوديان بلاد الغال الخصبة وبعض مناطقها الشمالية ، ويلاحظ أن هناك طريقة الثلاثة حقول The Three Field Cultivation وهذه استخدمتها ألمانيا وبمقتضاها يترك ثلث الأرض كرابا من غير زراعة فى كل سنة على حين يزرع الثلثان الآخران أحدهما فى الخريف والآخر فى الربيع .

٣٨- خطط المقريزى ، جـ ١، ص ١٠٠-١٠١.

٣٩- المرجع السابق ، ص ١٠١-١٠٢.

٤٠- النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط ، ص ٢٤٢-٢٤٣.

٤١- المرجع السابق .

٤٢- المقلقلات هى المحاريث الكبار ، والبرش : الحرث .

٤٣- الأبلوجة : مكيال يسع قنطارا فما حوله من عصير القصب .

٤٤- خطط المقريزى ، جـ ١، ص ١٠٢.

٤٥- دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٧، ص ٢٢١.

٤٦- المرجع السابق ، ص ٢٢٢.

٤٧- المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

٤٨- صبح الاعشى ، جـ ٣، ص ٤٤٦.

٤٩- المرجع السابق ، ص ٤٤٦.

٥٠- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٢٦٠.

٥١- الأحكام السلطانية ، ص ١٥٣.

٥٢- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٢٦١.

٥٣- الأحكام السلطانية ، ص ١٥٣.

٥٤- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٢٦١.

٥٥- المرجع السابق ، نفس الصفحة

٥٦- المرجع السابق ، ص ٢٦٢.

٥٧- البهى الخولى : الثروة فى ظل الإسلام ، ص ٨٤

٥٨- المرجع السابق ، ص ٨٥

٥٩- تحليل الفكر الاقتصادى فى العصر العباسى الأول ، ص ٤٠٦

٦٠- المرجع السابق ، ص ٤٠٧

٦١- تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ١، ص ٨٠.

٦٢- المرجع السابق ٨٠-٨١.

٦٣- معجم البلدان ، جـ ١، ص ٤٤٦.

٦٤- معجم البلدان ، جـ ١، ص ١٧٩.

٦٥- المرجع السابق .

٦٦- أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد ، ص ٢٦٦.

٦٧- الأحكام السلطانية ، ص ١٦٤.

٦٨- دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٤ ، ص ١٢٤.

٦٩- النظم الإقطاعية ، ص ١٠.

٧٠- المرجع السابق ، ص ١١.

٧١- خطط المقريزى ، جـ ١، ص ١٣٨.

٧٢- القبالات ، الأراضى المقبولة بما عقد عليها من خراج ومفردها قبالة .

٧٣- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، جـ ٢، ص ٢٧٥.

٧٤- المرجع السابق ، ص ٢٧٦.

٧٥- خطط المقريزى ، جـ ١، ص ١٤٥.

٧٦- النظم الإقطاعية ، ص ٢٩٩.

٧٧- البيومى إسماعيل الشربينى : مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، ج١ ، ١٩٩٧ ، ص ٢٢٩

٧٨- المرجع السابق ، ص ٢٣١

٧٩- قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، ص ١٥٢.

٨٠- تاج العروس ، جـ ٣، ص ١٦٧.

٨١- الفصل الثانى .

٨٢- المفصل ، جـ٧، ص ٢١٧.

٨٣- تاج العروس ، جـ ١٠، ص ٣٨٧ .

٨٤- المفصل ، جـ ٧، ص ٢١٨.

٨٥- تاج العروس ، جـ ٥، ص ٣٤٢.

٨٦- المفصل ، جـ ٧، ص ٢١٩.

٨٧- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٢٠٠.

٨٨- تاج العروس ، جـ ٥، ص ٣٤٢.

٨٩- المفصل ، جـ ٧، ص ٢٢٠.

٩٠- تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ٢، ص ١٢٧.

٩١- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ١٣٥-١٣٦.

٩٢- المرجع السابق ، ص ٢١٣-٢١٤.

٩٣- تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ٢، ص ١٧٤.

٩٤- المرجع السابق ، ص ١٧٥.

٩٥- عصر سلاطين المماليك ، جـ ٢، ص ٣٢٣.

٩٦- مجدى عبد الرشيد بحر : القرية المصرية ، ص ٢٥٤

٩٧- عمـــاد بدر الدين أبو غازى : تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الجراكسة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٠ ، ص ١١٠

٩٨- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٩٩- عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٨٠.

١٠٠- النظم الإقطاعية ، ص ٣١١.

١٠١- المرجع السابق ، ص ٣١٢.

خاتمـــة

بعـــد هذه الرحلة فى ربوع التاريخ استقراء لجهد العقل العربى والساعد العربى فى مجال النبات والفلاحة والرى ، لنا أن نقف لنتساءل : ماذا بقى من هذا التراث ؟

إنـــنا نســـتميح القارئ عذرا فى طرح هذا السؤال فى خاتمة هى بحكم طبيعتها تســـتغرق بضـــع صفحات تعد على أصابع اليد ، حيث أنه سؤال هام وخطير يتطلب دراســـة مســـتقلة قائمـــة بذاتها .. نعتذر له إذن بالتنبيه إلى ذلك ، وبأننا مجرد عابرين بالإجابة مشوقين القارئ إلى أن يبحث فى مصادر أخرى عن الإجابة ومثيرين زملاءنا مـــن الباحثيـــن أن ينطلقوا بحثا عن إجابة وافية شافية ، ونكتفى هنا بهذه الفقرات على سبيل المثال لا الحصر .

إن مـــا أتيـــنا على ذكره من كتابات عربية فى هذا المجال ومن جهود عملية ، كانـــت مـــن غـــير شك لبنات قوية فى صرح حضارة الإنسان إذا كان بعض منها قد تجـــاوزه العلـــم الآن ، فـــإن بعضـــه الآخـــر ما زال يحتفظ بقيمته وما زالت له نفس الأهمـــية . وآيـــة ذلـــك هذه المصطلحات العربية التى دخلت المعاجم الأوربية ، نذكر منها [١] :

الحنضـــل Alhandal – الـــبرقوق Apricot – الخرشوف Artichohe – الـــباذنجان Aubergine – بـــندق Bundouc – الخـــروب Carob – قـــرطم Carthamus – قهوة Coffee – قطن Cotton – كمون Cumin – دوم Doum – ذرة Durra – فســـتق Fistic – القصـــبة Acazaba – الكافور Alcanfor – المســـك Almizole – الســـاقية Acequia – الناعورة Noria – السد Azud – القـــادوس Alcadus – الجـــب Aljibe البركة Alberca – الساقية (طاحونة على المـــاء Acena) – طاحونة Tahona – المعصرة (للزيت) Almazara – المنية (البيـــت حولـــه حديقة) Almunia – ، وهى شائعة جزئيا فى صقلية وتعتبر شهادة حية على المستوى الفنى الرفيع الذى وصل إليه العرب وعلى الأهمية الكبيرة للزراعة

فـــى الاقتصـــاد والحياة الاجتماعية لتلك البلاد [٢] . كذلك يوجد فى الأسبانية الكثير من أسماء النباتات والثمار والخضروات التى تعود إلى أصل عربى مثل : نارنج (برتقال) Naranja – لـيمون Limon – الزعفـران Azafran – السـكر Azucar – الريحان Arrayan .

إلى غير ذلك من ألفاظ ومصطلحات .

ويؤكـد (مارتن بلسنر) أن الدارس لتاريخ العلم لابد أن يتضح له الاتجاه العملى للعلـم الإسـلامى ، ويـتجلى هـذا الاتجاه أوضح ما يكون فى المؤلفات التى وضعها العلمـاء المسـلمون فى النبات والحيوان والمعادن ، ففى الحالات التى لم توضع فيها كتـب النبات لأغراض لغوية فإن المؤلفات الإسلامية فى هذا الميدان كانت ذات طبيعة زراعـية أو صـيدلانية . وبالرغم من أن من الصحيح أنه " كانت توجد فى جميع هذه الميادين مؤلفات قديمة ترجمت إلى العربية كان يمكن أن تكون نموذجا يحتذى به " ، فـإن استفادة المؤلفات العربية الأصلية من تلك النماذج كانت فى هذا الميدان أقل منها فى الميادين الأخرى [٣] .

فكـتاب النـبات الذى ورد ذكره فى قوائم مؤلفات أرسطو ، والذى يعرف بأنه مـنحول ، يمـثل مظهـرا فـريدا لتراث الإسلام فى الغرب ، فهذا الكتاب هو ترجمة يونانـية للصيغة اللاتينية التى عملها الفرد دى سارشل Alfred de Sarshel لكتاب النـبات الـذى ألفه فى الأصل نيقولا الدمشقى Nicholaus Damascenus المولود حوالـى عام ٦٤ ق .م والذى كان الفرد قد قرأه فى ترجمة عربية مختصرة . وقد نشر نـص الـترجمة العربـية لهذا الكتاب أ . ح أربرى A . J . Arberry خلال عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، كمـا نشرها أيضا الدكتور عبد الرحمن بدوى سنة ١٩٥٤ [٤] . بل إن مؤلفـات ثيوفراسـطس Theuphrastus فـى النـبات ، المقتبسـة مباشرة عن أرسـطو ، لـم تكن معروفة فى عالم الإسلام ، إذ كان فى متناول علماء المسلمين فى الفلاحـة مجموعة نصوص زراعية أقدم جمعها كاسيونوس باسوس سكولا ستيكوس

Cassians Bassus Scholasticus لامبراطور الروم البيزنطيين قسطنطين السابع ، وقد عرفت مجموعة النصوص هذه باسم الزراعة Geoponica [٥] .

وإذا كان البعض يذهب إلى أنه لا يعرف حتى الآن إن كانت مؤلفات المسلمين فى النبات بالذات مثل كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى قد تركت أى أثر على الغرب ، إلا أن هذا الأثر يبدو حقيقة واقعة إلى حد ما بالنسبة لمؤلفات علماء المسلمين فى الزراعة والفلاحة ، فقد ترجمت إلى اللاتينية مقتطفات مطولة من (كتاب الفلاحة النبطية) لابن وحشية ، كما ترجمت إلى اللغة القشتالية فى العصور الوسطى كتابات عالمين أندلسيين فى الزراعة هما ابن واند (توفى سنة ٤٦٧هـ - ١٠٧٥م) وابن بصال (توفى سنة ٤٩٩هـ - ١١٠٥م) [٦] .

وإذا كنا قد أثبتنا عددا من الألفاظ والمصطلحات العربية التى دخلت اللغات الأوربية إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن شيوع مثل هذا الألفاظ والمصطلحات ، إنما هو نتيجة لإدخال العديد من مسمياتها إلى أوربا وخاصة فى قطاعها الجنوبى ، ويقول م. أ. كوك M.A Cook إن قائمة النباتات التى يقال أن مسلمى العصور الوسطى الأوائل أدخلوها إلى جنوب أوربا هى قائمة طويلة . ويقال أن أول حاكم أموى فى أسبانيا أحضر معه " نباتات عجيبة وأشجار نبيلة " من الشام وغيرها . والنوع الوحيد المحدد من الفواكه الذى ورد ذكره فى هذا الصدد ، هو نوع خاص من الرمان ، ولذا يجب بصورة عامة استنتاج وصول النباتات الجديدة من وجود شواهد تثبت زراعتها فى الفترة الإسلامية من جهة وعدم وجود مثل هذه الشواهد فى الفترة السابقة على الإسلام [٧] من جهة أخرى .

فبالنسبة للفترة الإسلامية توجد مصادر موثوق بها إلى حد ما تحدد لنا النباتات التى كانت تزرع ، فبالإضافة إلى المعلومات المتناثرة فى كتابات الجغرافيين المسلمين ، فقد بقيت الكتابات المتعلقة بعلم الزراعة فى أسبانيا الإسلامية ، وهذه الكتب تلقى ضوءا على زراعة العصور الوسطى يزيد بكثير عما نجده فى ذلك الهراء الأدبى الذى يزخر به التراث الكلاسيكى الموجود فى البلاد الواقعة إلى الشرق وهذا يعنى أن

المعلومات فى هذه الحالة كما فى بقية الحالات بصورة عامة ، متوفرة بالنسبة لأسبانيا أكثر بكثير منها بالنسبة لصقلية [٨] .

وتوجد فى الواقع حالات لا تتوفر فيها المعلومات عن صقلية إلا بالنسبة إلى الفترة النورماندية ، أما الأوضاع فى الفترة الإسلامية نفسها ، فلا يمكن معرفتها إلا بالاستنتاج .

على أن علينا بصورة عامة أن لا نشكو أكثر مما يجب من نوعية المعلومات عن العالم العربى فيكفى أن نعرف أن الأرز والقطن وقصب السكر أصبحت جزءا لا يتجزأ من الزراعة الأندلسية كما يظهر من (التقويم القرطبى) ، وهو تقويم يعود إلى منتصف القرن العاشر .

وكان هناك أسلوب (هيدروليكى) ينتمى بصورة واضحة نوعا ما إلى التراث الإسلامى فيما يقول (كوك) [٩] رغم أنه (أى الأسلوب) لا يظهر إلا قليلا فى جنوب أوربا ، وعندما يظهر فإنه يكون فى سياق (حضرى) أكثر منه زراعى . هذا الأسلوب هو القناة (القنوات) وهى مجرى للماء تحت الأرض يتكون عن طريق الربط بين سلسلة من الآبار ويستخدم فى استنباط موارد المياه الجوفية فى مواضع قد تكون على مسافات شاسعة ، وهى تظهر فى مناطق كثيرة فى شمال أفريقية فى الفترة الإسلامية . وفى أسبانيا تظهر بصورة رئيسية فى ضواحى مدريد . ولقد كان إيجاد شبكة مجارى المياه الجوفية هذه هو الذى جعل من الممكن وجود مدينة مثلها تقوم على أرض تتصف بجفاف سطحها ، وذلك قبل تحديد شبكات المياه فى هذه المدينة فى منتصف القرن الماضى ، ويبدو من المحتمل جدا أن يكون المسلمون هم الذين أدخلوا هذا الأسلوب ، فليس لمدريد أى تاريخ يذكر قبل الفترة الإسلامية (ولعل الاسم نفسه ذو أصل عربى ويتعلق بهذه الممرات المائية) .

وإذا كان التاريخ العربى قد بدأ يشهد فترة ضعف وتدهور فى أواخر الدولة المملوكة وبعض فترات العهد العثمانى ، إلا أننا نرى بعض الجهود العلمية الطيبة التى

شـــهدها عالمـــنا العربى فى أوائل القرن العشرين لعدد من العلماء والباحثين يمكن أن نظلمهم كثيرا لو حاولنا أن نناقش ما قاموا به من جهود فى هذه السطور الختامية .

.. وهكـــذا كان العرب – فى ظل عقيدتهم – رسل حضارة لا بمعنى أنهم كانوا نقلـــة لها وإنما بمعنى القيام بجهد الإبداع والابتكار واستكمالا لمسيرة جهود سابقة لأمم ســـابقة ثم إيصال الناتج إلى أمم تالية وحضارة جديدة لتستمر جذوة التقدم البشرى إلى أمام .

ونحـــن إذ نســـوق هذه الصورة لا نقدمها كأسلوب من أساليب التغنى بالماضى والوقـــوف عند هذا الحد. وإنما لنقول لأنفسنا ولغيرنا : إذا كنا قد استطعنا أن نفعل ذلك مـــنذ قرون طويلة أليس هذا يثبت أن فى مقدرونا أن نفعل أكثر منه فى القرون الحالية والتالـــية ، وأن ذلك لا يتم إلا بتوفير الأسباب الضرورية ، وأن هذه الأسباب معظمها فى أيدينا .. فما الذى يجعلنا إذن ننتظر ؟

الهوامش

١- مختار القاضى : أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.

٢- شاخت وبوزدرت : تراث الإسلام ، ترجمة محمد زهير السمهودى ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٨) ، القسم الأول ، أغسطس ١٩٧٨، ص ١٣٧.

٣- شاخت وبوزورت : تراث الإسلام ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقى العمد ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٢) – القسم الثالث ، ديسمبر ١٩٨٧، ص ١٣٠.

٤- فى النفس لأرسطو طاليس ، كتاب نشره عبد الرحمن بدوى (القاهرة ١٩٥٤) مع ثبت بمؤلفات أرسطو .

٥- تراث الإسلام ، القسم الثالث ، ص ١٣١.

٦- المرجع السابق ، ص ١٣٢.

٧- تراث الإسلام ، القسم الأول ، ص ٣٠٤.

٨- المرجع السابق ، ص ٣٠٥.

٩- المرجع السابق ، ص ٣٠٧.

المراجع

١- إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط والعصور الوسطى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨.

٢- إبراهيم يوسف الشتلة : سد مأرب واحد من أضخم سدود الجزيرة العربية وأشهرها ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد (٦٣) ربيع الثانى ١٤٠٣هـ - فبراير ١٩٨٣.

٣- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، دار الثقافة بيروت، ١٩٨١.

٤- ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

٥- ابن إياس (محمد بن أحمد) : بدلع الزهور فى وقائع الدهور ، كتاب الشعب (٩٠) القاهرة ، ١٩٦٠.

٦- ابن بطوطه : رحلة بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأسفار ، تحقيق على المنتصر الكتانى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٥.

٧- ابن جبير : رحلة ابن جبير ، دار التراث ، بيروت ، ١٩٦٨.

٨- ابن حوقل : المسالك والممالك ، نشر دى خويه ، ليدن ، ١٨٧٣.

٩- ابن خلدون : المقدمة ، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠.

١٠- ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .

١١- البهى الخولى : الثروة فى ظل الإسلام ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٨١ ، ط٤

١٢- البيومى إسماعيل الشربينى : مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٧

١٣- الجـاحظ : الـبخلاء ، تحقـيق محمد على الزغبى ، مكتبة العرفإن ، بيروت ، ١٩٨١.

١٤- إحسـان صدقى العمد : الخبز فى الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت ، مجلس النشر العلمى بجامعة الكويت ، ١٩٩٢

١٥- أحمـد إبراهيم الشريف : مكة المدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة ، دار الفكر العربى د.ت .

١٦- أحمـد بـن داود الدينورى : النبات ، حققه وشرحه برتهار لفين ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٤

١٧- أحمـد أحمـد بـدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢.

١٨- أحمد أمين : ضحى الإسلام ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦.

١٩- أحمـد حسـين شـرف الـدين : اليمن عبر التاريخ ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤.

٢٠- أحمـد بـن داود الدينورى : النبات ، حققه وشرحه برتهار لفين ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٤ .

٢١- أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربى ، د.ت .

٢٢- أحمـد شـلبى : السياسـة والاقتصـاد فى التفكير الإسلامى ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٧.

٢٣- أحمـد عـبد الباقى : معالم الحضارة العربية فى القرن الثالث ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١

٢٤- أحمـد عـبد الحلـيم الجندى : القرآن والمنهج العلمى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤

٢٥- أحمـــد عبد السلام الكردانى (إعداد وتقديم عن كتابات محمد أحمد الغمراوى) : نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٨

٢٦- أحمـــد عـــبد القـــادر المهندس وعبد الملك العبد الله الخيال : نباتات حقب الحياة القديمـــة مـــن المملكة العربية السعودية ، الرياض ، العدد (٤٩) السنة الخامسة ، رجب ١٤٠١هـــ - مايو ١٩٨١.

٢٧- أحمـــد عيســـى : تـــاريخ النبات عند العرب ، جامعة فؤاد الأول ، كلية الطب ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٤٤.

٢٨- أحمـــد فـــريد رفاعى : عصر المأمون ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ ، ط٤ ، ج١

٢٩- أحمـــد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢.

٣٠- _____ : من أخلاق النبى ، دار نهضة مصر القاهرة ، ١٩٧٩.

٣١- إخـــوان الصفا : رسائل إخوان الصفا خلان الوفاء ، تحقيق خير الدين الزركلى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٢٨.

٣٢- الخوارزمـــى (محمـــد بـــن أحمد بن يوسف) : مفاتيح العلوم ، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨١.

٣٣- أدم ميـــتز : الحضـــارة الإســـلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧.

٣٤- السيد أحمد أفندى الرشيدى : عمدة المحتاج وعلمى الأدوية والعلاج .

٣٥- الســـيد محمـــد مرتضـــى الزبيدى : تاج العروس ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٦هـ .

٣٦- السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمود أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨.

٣٧- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠.

٣٨- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٣.

٣٩- الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، د.ت .

٤٠- الماوردى : الأحكام السلطانية ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٣.

٤١- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢.

٤٢- المسعودى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، د. خويه ، ليدن ، ١٩٠٦.

٤٣- المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، مؤسسة الحلبى القاهرة ، د.ت .

٤٤- أمينة أحمد إمام الشوربجى : رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٤ .

٤٥- أنور أبو سويلم : المطر فى الشعر الجاهلى ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٧

٤٦- أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى والعلوم والآداب ، الكويت ، العدد (١٣) ، يناير ١٩٧٩.

٤٧- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٦٧٧- ٧٣٣هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، د.ت.

٤٨- بلاشير : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة ابراهيم الكيلانى ، دمشق ، ١٩٥٦.

٤٩- بهجت كامل التكريتى : الطائف ، رافد من روافد الثقافة العربية الإسلامية ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد الرابع ، السنة الأولى ، شوال ١٣٩٧ هـ سبتمبر ١٩٧٧.

٥٠- بوكاى (موريس) : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، ترجمة نخبة من الدعاة ، دار الكندى ، بيروت ، ١٩٧٨.

٥١- توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥.

٥٢- _____: فى تراثنا العربى والإسلامى ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة (٨٧) ، ١٩٨٥

٥٣- جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، القاهرة د.ت.

٥٤- _____ : تاريخ التمدن الإسلامى ، دار الهلال ، د.ت.

٥٥- جلال الدين خانجى : القرآن والدورة الهيدروجينية ، المجلة العربية ، الرياض ، السنة الثانية ، العددان ١٠، ١١، شعبان / رمضان (يوليو /أغسطس) ١٩٧٨.

٥٦- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٧٠.

٥٧- جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠

٥٨- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٢.

٥٩- حســن إبراهــيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، النهضة المصرية ، ١٩٧٦.

٦٠- حســن محمــد الشــماع : ســد مأرب من عجائب العالم القديم ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٣٧) رجب ١٤٠٠هـ -مايو /يونيو ١٩٨٠.

٦١- حســين مؤنــس : تــاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٦ ، ط٢ ، د٠م

٦٢- حمــود العودى : المدخل الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث العربى القديم ، دراسة عن المجتمع اليمنى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٠.

٦٣- دائرة المعارف الإسلامية ، مطبعة الشعب ، القاهرة .

٦٤- دونــالد ر٠ هــيل : العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة أحمد فؤاد باشا ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، ٢٠٠٤ .

٦٥- رابطة العالم الإسلامى : إعجاز القرآن الكريم فى وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر ، مكة المكرمة ، هيئة الإعجاز العلمى ، ١٤٢١هـ ط٢

٦٦- رشــدى راشــد (إشــراف) : موسوعة تاريخ العلوم العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٥

٦٧- زغلــول الــنجار : النبات فى القرآن الكريم ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٤

٦٨- زكــى نجيب محمود : جابر بن حيان ، سلسلة أعلام العرب (٣) ، مكتبة مصر ، القاهرة ، مارس ١٩٦٢.

٦٩- زيــدان عبد الباقى : العمل والعمال والمهن فى الإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٨.

٧٠- س .م . ضـــياء الديـــن علـــوى : الجغرافـــيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديـــن ، تعريـــب وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم وطه محمد جاد ، فى سلسلة علمية تصدر عن وحدة البحث والترجمة قسم الجغرافيا بجامعة الكويت ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ، ١٩٨٠.

٧١- ســـعيد إســـماعيل علـــى : العمـــل فى الفكر التربوى الإسلامى ، بحوث المؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ، بغداد ، حزيران ١٩٧٨.

٧٢- _____ : ديمقراطـــية التربـــية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢.

٧٣- ســـلمى الخضراء الجيوسى (تحرير) : الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ ، ط٢ ، ج٢

٧٤- شـــاخت وبـــوزورث : تـــراث الإسلام ، ترجمة محمد زهير السمهورى ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٨) ، القسم الأول ، أغسطس ١٩٧٨.

٧٥- _____ : تـــراث الإســـلام ، ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقى العهد ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٢) ، القسم الثالث ، ديسمبر ١٩٧٨.

٧٦- شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ط١٠.

٧٧- صحيح البخارى : مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٨هـــ .

٧٨- طـــاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨.

٧٩- عـــباس محمـــود العقـــاد : أثـــر العرب فى الحضارة الأوربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦.

٨٠- عبد الحليم الجندى : القرآن والمنهج العلمى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤.

٨١- عـبد الرحمـن حمـيدة : الـرقة ، البطيخ الأحمر ، مجلة الفيصل العدد (٤٢) ، ذو الحجة ١٤٠٠هـ - أكتوبر / نوفمبر ١٩٨٠.

٨٢- عـبد الرحمـن حمـيدة : بصرى عنقود العنب ، مجلة الفيصل الرياض ، العدد (٣) ، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ - مارس /أبريل ١٩٨٠.

٨٣- عـبد الحلـيم منتصـر : مـن تاريخ العلم عند العرب ، ابن وحشية وكتابة فى الفلاحة ، مجلة العربى ، الكويت ، العدد (٢٠٠) ، يوليو ١٩٧٥.

٨٤- عبد الله أبو السعود : فقه العبادات ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢.

٨٥- عبد الله جبريل مقداد : القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٦

٨٦- عـبد الله عـبد الجبار ، ومحمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٠

٨٧- عـبد الهادى النجار : الإسلام والاقتصاد ، سلسلة عالم المعرفة (٦٣) ، الكويت ، مارس ١٩٨٣.

٨٨- عصـام عـباس محمـد على نقلى : تحليل الفكر الاقتصادى فى العصر العباسى الأول ، مكـة المكـرمة ، معهـد الـبحوث العلمـية وإحياء التراث الإسلامى ، ١٤١٦هـ

٨٩- علـى عبد الله الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين فى علم النبات ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥

٩٠- _____: إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥

٩١- على العتوم : قضايا الشعر الجاهلى : عمان ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ١٩٨٢

٩٢- عمـــاد بـــدر الديـــن أبـــو غازى : تطور الحياة الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٠

٩٣- عماد الدين خليل : رحلة مع دنيا النبات فى كتاب الله ، مجلة العربى ، الكويت ، السنة (٢١) ، العدد (٢٤٢) ، يناير ١٩٧٩.

٩٤- عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٦.

٩٥- عمـــر رضـــا كحالـــة : العلوم البحتة فى العصور الإسلامية ، مطبعة الترقى : دمشق، ١٩٧٠.

٩٦- عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٠.

٩٧- قاســـم عـــبده قاســـم : دراســـات فى تاريخ مصر الاجتماعى ن عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩.

٩٨- ابن قيم الجوزية : الطب النبوى، د٠ن ، د٠ت ، د٠م

٩٩- كراتشكوفســـكى : تاريخ الأدب الجغرافى ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧.

١٠٠- مجـــدى عبد الرشيد بحر : القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٩ ٠

١٠١- مجلـــة الفيصـــل : النخـــيل ، موضـــوع خاص ، مجلة الفيصل الرياض ، العدد الخامس، السنة الأولى، ذى القعدة ١٣٩٧هـــ - أكتوبر ١٩٧٧..

١٠٢- محمد الحبيب الهيلة : تونس الخضراء ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٣٨) ، شعبان ١٤٠٠هـــ يونيو / يوليو ١٩٨٠.

١٠٣- محمد الحمدان : الأفلاج : مدينة البحيرات ، مجلة الفيصل الرياض ، العدد (٣٦) ، جمادى الآخر ١٤٠٠ هـــ أبريل / مايو ١٩٨٠.

١٠٤- محمد الصادق عفيفى : تطور الفكر العلمى عند المسلمين الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٧.

١٠٥- محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥

١٠٦- محمد حسين هيكل : الفاروق عمر ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣.

١٠٧- محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الكريم المسمى بتفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢.

١٠٨- محمد صالح سمك : أمير الشعر فى العصر الحديث ، امرؤ القيس ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٢٩

١٠٩- محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس ، دار الفكر العربى، ١٩٨٢.

١١٠- محمد بن عبد العزيز بنعبد الله : الوقف فى الفكر الإسلامى ، د٠م ، وزارة الأوقاف ، المملكة المغربية ، ١٩٩٦ ، ج١

١١١- محمد عبد الغنى حسن : الشريف الإدريسى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، سلسلة أعلام العرب (٩٧) ، ١٩٧١.

١١٢- محمد عبد المنعم الجمال : التفسير الفريد للقرآن المجيد ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٧١.

١١٣- محمد عثمان نجاتى : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١.

١١٤- محمد على نصر الله : تطور نظام ملكية الأراضى فى الإسلام ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٢.

١١٥- محمد عيسى صالحية ، و إحسان صدقى العمد : مفتاح الراحة لأهل الفلاحة لمؤلف مجهول ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٤

١١٦- محمـــد فـــؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٨.

١١٧- محمـــد كـــامل حـــتة : القيم الدينية والمجتمع ، سلسلة أقرأ (٨٦) دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤.

١١٨- محمـــد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد (١٤) مايو ١٩٥٢.

١١٩- محمـــد نذيـــر سنكرى : النبات الاقتصادى لجزيرة العرب عند الدينورى ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٢٤) ، جمادى الآخر ١١٩٩- مايو ١٩٧٩.

١٢٠- محمود الشرقاوى : بيع ثمار البساتين أول ظهورها ، مجلة الأزهر ، السنة (٤٥) ، أول ١٣٩٣هـــ - أبريل ١٩٧٣.

١٢١- محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢.

١٢٢- محمـــود عـــرفة محمـــود : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٨.

١٢٣- المـــورد : مجلـــة تراثية ، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، م١٤ ، العدد الرابع ، ١٩٨٥.

١٢٤- مخـــتار القاضـــى : أثـــر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢.

١٢٥- مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٢.

١٢٦- مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٣/٤٢، ج١.

١٢٧- ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة العربية ، بيروت، ١٩٧٥.

١٢٨- _____ : المدارس الشرابية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٦٥.

١٢٩- نـــادى الطـــائف الأدبـــى : ســـوق عكاظ فى التاريخ والأدب ، إعداد لجنة الآثار التاريخية مطابع الزايدى بالطائف ، د.ت ، ط١.

١٣٠- ناصـــر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ط٥ .

١٣١- ويندل فيلبس : كنون مدينة بلقيس ، بيروت ، ١٩٦١.

١٣٢- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار الصادر ، بيروت ، ١٩٧٩.